فلسفة

آرثر شوبنهاور

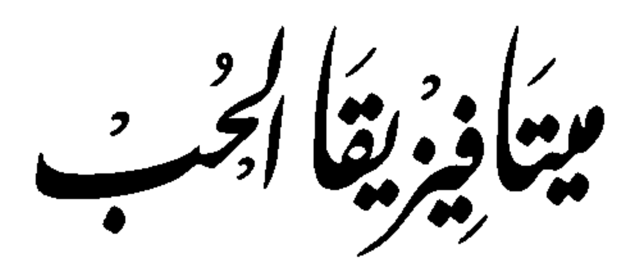
ميتافيزيقا الحُب

ترجمة وتقديم
جلال العاطي ربي

الرافدين

ميتَافِيزيقَا الحُب

آرثر شوبنهاور



ترجمة وتقديم وتعليق:

جلال العاطي ربي



www.daralrafidain.com

ميتافيزيقا الحبّ

آرثر شوبنهاور

ترجمة وتقديم وتعليق: جلال العاطي ربي

Metaphysics of Love; On Women

Métaphysique De L'amour Sexuel; Sur Les Femmes

By Arthur Schopenhauer

Translated by Jalal El Ati-Rabbi

الطبعة الأولى: مايو ـ أيّار، 2021 (1000 نسخة)



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 31 - 1

الفهرس


Le ravissement de Psyche
Master Copy by tutle

إهداء المترجم

إلى روح أبي الذي غيّبه الموت

إلى كلّ مَنِ التاعَ بسهام كيوبيد

إلى كلّ أنثى... دائماً إلهة كانت أم بشرية.

مقدّمة المترجم

«يبدو أنّ تاريخ الفلسفة قد اهتمّ بحياة شوبنهاور أكثر من اهتمامه بفلسفته، كما لو أن معرفة حياة الرجل كافية لفهم هذه الفلسفة».

غيوم مورانو، شوبنهاور، ص. 11

«إنّ النظر في حياة رجل مثل شوبنهاور بشكل مستقل عن عمله، كما فهمت سيمون فايل، سيؤدي حتما إلى التأكيد على عيوبه كإنسان... لقد وضع شوبنهاور عصارة ما لديه في عمله الفلسفي».

بيتر لويس، 2012، ص. 10

ما إن صوّرت الإرادة شوبنهاور[1] وركيته على مادة جسده التي

(1) ولد آرثر شوبنهاور في دانتزيغ في العام 1788 واستطاع في سن الخامسة والعشرين أن يصدر عمله الفلسفي الأول «الجذور الأربعة لمبدأ السبب الكافي»، الذي كافأته عليه جامعة يينا بدرجة الدكتوراه وهو في سن الرابعة والعشرين. وبعد ذلك بسنوات وصل هذا العمل إلى مرتبة الأعمال الكلاسيكية الأساسية، وربما يعتبر إلى الآن من أرصن المقالات في مجال الأبستيمولوجيا. وفي سنة 1816 كتب مقالة قصيرة بعنوان في الرؤية والألوان، أما في سنة 1819 رأى عمله «العالم كإرادة وتمثل» النور، وقد صدر لأول مرة في جزء واحد بسط فيه شوبنهاور نسقه الفلسفي في خطوطه العامة، وضمنه ملحق يحوي نقداً محكما لمؤلفات كانط النقدية. كما نشر في سنة 1830 مقالة ثانية باللاتينية عن

نعرفها جميعاً، حتى نفخت في أحشائه إرادة الحياة بروح عبقرية الفلسفة[1]؛ لتسكنه وتشحذ فكره وتهذب ذائقته وتحدد مجرى كلّ حياته فيما بعد، وإن كان الوعي بهذه العبقرية الكامنة فيه لم يهز كيانه إلا وهو شاب في بداية عقده الثاني من عمره، وبتشجيع واثق من أمه يوهنا التي آمنت بموهبته.

الأمر ذاته سيتكرر مرة أخرى في حياة فذّ آخر من أفذاذ الفلسفة التحليلية؛ أعني لودفيك فيتغنشتاين. هذا وإن كانت عبقرية فيتغنشتاين الفلسفية ستحظى بالاعتراف المباشر من

نظرية الألوان، وفي 1836 كتب مقالته عن الإرادة في الطبيعة، التي عرض فيها بالتحليل والمناقشة ما يثبت ويؤيد فلسفته في العلوم التجريبية. وفي 1839 و1940 كتب شوبنهاور مقالتين: «في الحرية والإرادة الإنسانية» و«في أسس الأخلاق». وقد توجت الأولى بجائزة الأكاديمية النرويجية، في حين أن الثانية استبعدتها الأكاديمية الدنماركية على الرغم من أنه كان المرشح الوحيد؛ لشنه هجوما شرساً على هيغل. وفي عام 1841 نشِرت مقالتان جمعتا في كتاب واحد بمقدمة مفصلة، تحت عنوان: «المشكلتان الأساسيتان في فلسفة الأخلاق». وبعد ثلاثة أعوام (1844) أعيدت طباعة كتاب «العالم كإرادة وتمثل» في جزأين. وفي عام 1851 نُشِر العمل الذي سيحقق له شهرة بلغت الآفاق: «الحواشي والبواقي - Parerga und Paralipomena». وفي عام 1860 ستغيبه إرادة الموت عن العالم بعد أن تنعم تحت أشعة شمس الاعتراف المتأخر الدافئة. لقد بقي طويلاً كفيلسوف غريب عن زمنه يغرد خارج السرب غارقا في الإحباط يجتر مرارة اليأس، لكن عزاءه كان في المستقبل، فكانت الأيام تمر وتتغير الأزمنة، أما شوبنهاور فقد ظل خالداً في سجلات التاريخ.

(1) يقول شوبنهاور: «ما جسدي بالأساس إلا إرادتي وقد أصبحت منظورة» (نقلا عن مجلة «Le Point» الفرنسية، العدد 21، 2016، ص. 60). (المترجم).

قبل جلّ المفكرين البارزين في وقته، أما في حالة شوبنهاور فقد كان عليه أن ينتظر إلى آخر سني حياته ليبلغ سدة المجد. فعلى امتداد خمس وثلاثين سنة من التهميش عانى فيلسوف الإرادة أو سيكولوجي الإرادة ـ كما دعاه توماس مان ـ بين نشر كتابه «العالم كإرادة وتمثل» وبزوغ نجم شهرته المتأخر. ورغم ذلك لم ييأس شوبنهاور، ولم يشكّ أبداً في أنه سيكسر طوق التعتيم، وأنّ صوته سيصبح مسموعاً غداة يوم من الأيام؛ لأنه كان راسخ الاعتقاد وثابت اليقين أنّه أبدع فلسفة للعالمين، فلسفة ستفيد الإنسانية جمعاء؛ بتقديمها تفسيراً للغز الوجود، رفع به رداء الشقاء القاتم عن الشرط الإنساني. لم يعش شوبنهاور إلا سبع سنوات بعدما طرق المجد بابه أخيراً. لكن بعد قرابة خمسين سنة على وفاته، حظيت أفكاره بالاحتفاء من قبل المفكرين والكتاب والفنانين وغدا اسمه مرادفاً للعظمة والموضة الفلسفية.

فقد أضحى ذائع الصيت، بل انتقل لقب «الفيلسوف العصري ـ أو المطابق لروح العصر» إلى شخصيات فلسفية بارزة في القرن العشرين مثل: هايدغر وسارتر وفيتغنشتاين[1]. وفضلًا

(1) إذا أردنا ببساطة سرد أسماء المفكرين والكتاب والموسيقيين والشعراء والفنانين المهمين الذين يدينون بدين فكري أو إلهام لشوبنهاور من نهاية القرن التاسع عشر مروراً القرن العشرين حتى الوقت الحاضر، فسنحتاج إلى ذكر شخصيات مثل: نيتشه، سيغموند فرويد، مارتن هايدغر، فيتغنشتاين، فاغنر، ليو تولستوي، أنطون تشيخوف، إيفان تورغينيف، غي دي موباسان، توماس هاردي، إميل زولا، إدغار

عن اعتباره من بين أعظم الفلاسفة، كانت له صفة فارقة؛ لكونه الفيلسوف الأول في التشاؤم وسيكولوجيا الرغبة؛ إذ منّى النفس بإطفاء الإرادة لينتهي مسلسل الشقاء الإنساني. كما أنّه واحد من الفلاسفة الأقلّاء الذين يمتعونك بقراءة أعمالهم.

إنّ وضوحه وذكاءه وأسلوبه المباشر؛ كلّ ذلك جعل أفكاره، لا سيما تلك التي بسطها في مقالاته المتأخرة ميسورة الاستيعاب قياساً بأعمال باقي الفلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر، وخاصة هيغل، ألدّ أعدائه. إضافة إلى أن فلسفة شوبنهاور تعج بالأسئلة الكبرى: معنى وقيمة الحياة، طبيعة الفن والأخلاق، الحب والجنس والنساء. فلا يوجد تصوير أبلغ ولا أفضل من تصوير شوبنهاور للبؤس والغرور وعبثية الحياة.

كرّس شوبنهاور حياته لما سمّاه «عبقريته الفلسفية»، كما وصف نفسه داعية للحقيقة نذر كلّ حياته لخدمة العرق الإنساني. كان أكبر خوفه وأشدّ هواجسِه، أن تحول الحوائل، كالفقر والحرب والزواج بينه وبين مواصلة مشروعه الفلسفي.

آلان بو، تشارلز بودلير، جوزيف كونراد، يوجين ديلاكروا، توماس مان، غوستاف مالر، مارسيل بروست، راينر ماريا ريلكه، توماس بيرنهارد، أوديلون ريدون، غوستاف مورو، موريس دينيس، لويجي بيرانديللو، فيليكس فينون، غوستاف كان، جي كيه هويسمانز، ويليام بتلر ييتس، ماكس هوركهايمر، صاموئيل بيكيت، تي. إس. إليوت، سومرست موغام، جورج لويس بورخيس ... (نقلا بتصرف عن: D. Jacquette, The philosophy of Schopenhauer, Routledge, 2014, p. 284)

أولا: الحب مجرد وهم وفخ نصبه لنا النوع؛ ليخلد نفسه.

عادةً ما كان كتاب «ميتافيزيقا الحب» ينشر منفصلاً عن غيره من الكتب الستة التي ألفها شوبنهاور خلال حياته، هذا إن نحينا جانباً الطبعات الثانية والثالثة لأهم ما كتب على الإطلاق. لكن بعد خمس وعشرين سنة على صدور كتاب «العالم كإرادة وتمثل»[1]، الكتاب العمدة لشوبنهاور، أمسى كتاب «ميتافيزيقا الحب» جزءاً لا يتجزأ من كتاب شوبنهاور ذاك؛ و«ميتافيزيقا الحب»، كما بات معلوماً، هو الفصل الرابع والأربعين من الملاحق والمغفلات التي أضيفت إلى الكتاب الرابع. يقدم هذا الفصل، الذي كرس للحب، النظرة الأخيرة لما أطلق عليه شوبنهاور «فكره الوحيد ـ einziger Gedanke».

ينقسم العالم، من منظور فيلسوف العبثية والتشاؤم[2]، إلى محورين اثنين: الإرادة (Wille) والتمثل (Vorstellung) الخاضع لمبدأ السبب الكافي.

فالإرادة هي المبدأ الميتافيزيقي الأول، الذي يجثم بهالته ويبسط هيمنته على كلّ شيء، بما في ذلك قوى الطبيعة الخاضعة

---

(1) ظهر الكتاب عام 1818 وقد أعد شوبنهاور طبعته الثانية للنشر سنة 1844، والثالثة سنة 1859.

(2) راجع: Clément Rosset, Schopenhauer, philosophe de l'absurde, PUF, 1967

لها، ما يعني أنّ الإرادة، في معناها الأصيل، يمكن وصفها بأنّها غريزية عمياء لاواعية، ولا تصير واعية بذاتها إلا في الإنسان وفي وعيه بفعل إرادته (vouloir)[1]، لكن هذا الوعي ليس، بأي حال كلياً، ويبقى جزئياً؛ فكلّ شيء في العالم إرادة، وهذا ما يفسر لماذا يطلق على النسق الشوبنهاوري، بين الحين والآخر «وحدة الوجود» والحب أيضاً لا يشذ عن هذه القاعدة.

الإرادة تسبب في الإنسان تمثلاً[2]؛ أي يتجلى العالم في الفعل الإدراكي للذات، إنّه الرابط بين الذات المُدرِكة والموضوع المُدرَك: «العالم هو تمثلي». وبصريح العبارة فإنّ النسق الشوبنهاوري، نسقٌ «ميتافيزيقي»؛ لأنّ أساسه يقوم على مبدأ أول

(1) ليس مفهوماً الإرادة وإرادة الحياة متكافئين؛ لأنّ إرادة الحياة هي موضع وتفريد للإرادة في ميدان الكائن الحي، وعلى هذا فهي غائية أو أقله تخلق فينا هذا الانطباع، على الضد من الإرادة التي، ويا للمفارقة، لا تريد شيئاً: «فغياب أي هدف وأي قيد هو بالفعل أساس للإرادة في ذاتها» (العالم كإرادة وتمثل، ص. 215 من الترجمة الفرنسية).

(2) نحن هنا أمام مذهب مثالي (وهو النسق الفلسفي الوحيد الذي يمكن أن نضع فيه شوبنهاور)، وهو مذهب دافع عنه شوبنهاور بقوة بسبب إعجابه بكانط. فشوبنهاور الذي حمل على عاتقه الإرث الكانطي استأنف التمييز الكانطي بين الظاهر والشيء في ذاته، لكن بأسلوبه الخاص؛ إذ إنّ شوبنهاور سيطبق هذا التمييز على الإرادة (الشيء في ذاته/ Ding an sich) وعلى التمثل (الظاهر/ Er-scheinung) ولكن الظاهر قد يكون وهمياً بالنسبة لشوبنهاور على العكس من كانط الذي رفض ذلك. والفرق الآخر بين الفيلسوفين هو البعد السببي للإرادة، فهي علة التمثل عبر مبدأ السبب الكافي، فيما كان كانط يرفض أن يسند إلى الشيء في ذاته أي سلطة سببية على قدرتنا الإدراكية/ الاستقبالية. (المترجم).

متعالٍ. فعلى عكس التقابل الكلاسيكي بين العقل والجسم، يقيم شوبنهاور تقابلاً بين الإرادة والعقل، ويذهب إلى أنّ الإرادة تطغى على العقل في الجنس، بحيث تطفو الأفكار الواعية على السطح فيما تثوي البواعث اللاواعية في أعمق الأعماق. فهذه الأفكار العميقة المعتمة تتحكم فيها الإرادة، أي بما هي إرادة حياة (vouloir _ vivre) وإرادة تناسل (vouloir _ se _ reproduire).

إنّ دافع شوبنهاور إلى تأليف «ميتافيزيقا الحب» هو أن يبين كيف أنّ الإرادة أو ما يدعوه فيلسوف ألمانيا الغضوب بـ «إرادة الحياة» (Wille zum Leben) تتمكن من أن تتموضع وتتجسد وتتمظهر وتتجلى، وأن تفصح عن نفسها في ظاهرة الحب الإنسانيّ، بكيفية لا واعية تقريباً؛ لكي تؤمن استمرارية النوع الإنساني. والعنوان الذي وضعه شوبنهاور لهذا الفصل؛ أي «**ميتافيزيقا الحب** ـ Metaphysik der Geschlechtsliebe»، يمكن توضيحه على هذا النحو: إنّ علّة الحبّ ميتافيزيقيّة (تقع خارج نطاق التجربة المحسوسة)[1]، لأنّ هذه العلّة هي الإرادة، وقد

---

(1) المنهج الشوبنهاوري هو عكس الديالكتيك الأفلاطوني. فإن كان أفلاطون في المأدبة جعل أيروس يقود العقل من خلال الجدل الصاعد إلى أن يسمو ويتعالى، فنحن مع شوبنهاور لسنا أمام أي ديالكتيك، بل إنّ الأمر وما فيه أنه عوض الإعلاء والإسماء لدينا نزول للإرادة وهي تتموضع وتتجسد بنحو من الأنحاء. وسيتبين لك أن شوبنهاور عند حديثه عن كونية الحب وحضوره الطاغي في التراجيديا والكوميديا وفي الروايات، كيف أنه سينهل من الحقل

عبّرت عن نفسها فينا. إنّ الحب حسب الألماني الفظّ، مجرد وهم، يعتقد الإنسان الواقع في حبائله أنّه يعمل بمقتضى مصلحته وخيره، وهو في الواقع كعبد تثقل كاهله مسؤولية خدمة مصلحة وخير ورفاه النوع. إنّ هذا النص الذي يعتبره شوبنهاور جوهرة عقده يتصل قليل اتصال بالفصل المعنون بـ«**عن الموت وعلاقاته بلافنائية الكائن في ذاته**»، وهو الفصل الذي يهدف إلى أن يبين، عبر تمييز دقيق بين الحياة (Leben) والوجود (dasein)، أنّ ما يمحّي ويختفي في الموت هو حياتنا في حين يستمر وجودنا في البقاء، ما يرتب بالضرورة أبدية النوع الإنساني.

إنّ الحب قناع تتخفى خلفه الغريزة الجنسية، وما إن ينكشف وجه الحقيقة البشع، حتى تتجلى عبودية الفرد لأهداف وغايات تتجاوزه. وفي الواقع، حتى إن اتشح الحب بثوب العذرية والنقاء، أو زين بنزعة شاعريّة فإنّ جذوره ضاربة أطنابها في الغريزة الجنسية. بل الأدهى والأمرّ أنّ ذلك الذي يسمى حباً لا يهدف إلا إلى تأمين خلود النوع البشري في أنقى وأخلص صوره.

لا مشاحة في أنّ الحب؛ هذا الإحساس الذي كان لدى

المعجمي للتجربة الإنسانية والوقائع الاجتماعية ليفسر ظاهرة الحب. وعليه؛ فشوبنهاور ينطلق من التجربة ليرتقي صعوداً إلى المبدأ المفسر للحب؛ أي مبدأه الميتافيزيقي. (المترجم).

الفلاسفة مهجوراً أو أخطأوا جوهره حين طرقوه، فخٌ نصبه النوع بغية استمراره في الوجود وتأبيده، وهذا يأتي ليدعم ويقوي الطابع المتشائم للفكر الشوبنهاوري وذلك بأن ألحقَ ودمجَ تحت سطوة الإرادة أنبل ظاهرة إنسانية عُقِد الأمل عليها لأن تفتح كوة نور تخرج الإنسان البائس من دوامة عبثية الوجود. وهي أطروحة جسورة وثورية لأنّها تسقط أوراق التوت عن الحب وتجرده من كلّ مزاياه وصفاته الإيجابية التي أضفتها عليه التقاليد الفلسفية المتعاقبة والثقافة الغربية بعامة.

كأنّ شوبنهاور يخدعنا كما تخدعنا عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع)؛ بدمغ فصله بعنوان «ميتافيزيقا الحب»، لأنّ الحب كما صوره شوبنهاور فيزيائي الأصل تتوقف عليه حياة النوع، فكلمة Geschlecht الألمانية تعني في آن الجنس والنوع. وهذا يشي بأنّ الحب عند شوبنهاور يعني شيئين مختلفين: الشفقة (Mitleid) بما هي إحساس بعذاب الآخر التي تميز كلّ الكائنات ذات الحساسية (هذا الضرب من الحب ليس وهماً وهو بلسم يحول دون جعل هذا العالم جحيماً)؛ و«عبقرية الجنس» (أو الروح الحارسة للنوع)، التي تحيل على كلمتي أمور (Amor) اللاتينية وإيروس (Eros) اليونانية، اللتين تشتم منهما رائحة الجنس. خلاصة القول؛ على امتداد النصين اللذين اخترت

نقلهما إلى العربية، فإنّ شوبنهاور أراد أن يجعل من الحب فيزياء حدد علّته الميتافيزيقية، وحدد المرأة بيولوجياً من حيث هي أداة مهمّتها الإنجاب؛ لتأمين استمرارية النوع البشري. وبناءً على ذلك يسير العالم متأرجحاً بين الاكتواء بنار الجوع ورمضاء الحب والرغبة المتعطّشة التي لا ينطفئ لها ظمأ. ما يعني تأبيد الوجود دون غاية محددة؛ لهذا يحذرنا شوبنهاور: «الحب هو العدو، وعُبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) شيطان ماكر لا يريد سوى التناسل».

ثانياً: شوبنهاور... كاره النساء أم خبير نفسيّ بهن.

يقول شوبنهاور في مقالته عن النساء: «وحده الرجل الذي على بصره غشاوة أو من كان ذكاؤه معتماً بسبب دافعه الجنسي (Geschlechtstrieb) هو من سيخطر على باله أن يطلق على هذا الجنس القزمي (المرأة) غير مكتمل النمو، ضيق المنكبين، واسع الوركين، قصير الساقين اسم الجنس اللطيف». والسؤال الذي يقفز إلى الذهن مباشرة: لمَ يمقت شوبنهاور الجنس الأنثوي إلى هذا الحد؟ هل أمه التي طردته من بيتها في فايمار في العام 1814 هي من حملته على كراهية كلّ النساء في المقالة المومأ إليها؟

بالنسبة لديدييه رايمون، المختص في فلسفة شوبنهاور (انظر

كتابه: شوبنهاور، 1979): هذا مؤكد. لأنّ بورتريه المرأة الذي رسم ملامحه شوبنهاور ولائحة العيوب الأساسية التي سجلها عليها يوحيان بأنّه كان يفكر في يوهنا وهو يبسطها عيباً تلو عيب وملمحاً عقب ملمح. إنّ المرأة، بحسب هاملت الألماني، تُختزل إلى «غنج ودلال»، و«خيانة»، و«خفة عقل»؛ وكل امرأة هي بالضرورة «منفاق مضياع»، إنّها كائن تافه ومنافق، لا تهدف إلا لإطالة عذاب البشرية... وليس مقدراً لها أبداً أن تسهم لا في أعمال الفكر العظيمة ولا في أضنى المشاق البدنية. يقول سافرنسكي، كاتب سيرة شوبنهاور على لسانه: «أعرف النساء. إنّهن لا ينظرن إلى الزواج إلا كمجرد مؤسسة لتأمين الغذاء. فحين فدح أبي المرض تخلى عنه الجميع ما عدا خادمة مخلصة محبة أحاطته بالعناية والرعاية الضرورية. وهو قابع في عزلته، كانت أمي تقيم الحفلات، وبينما هو يعاني من آلامه، كانت هي تمرح. هذا هو حب النساء!». تُظهِر هذه الأحكام القاسية شوبنهاور بمظهر إنسان مستعد لبيع نفسه للشيطان لقاء سلب المرأة مكتسباتها التاريخية.

وفي دراسة تحليلية نقدية لميتافيزيقا الحب، يرى أوليفييه كونتنسو أنّ الدافع الكامن وراء عداوة شوبنهاور الشديدة للنساء[1]

---

(1) ليس شوبنهاور عدو النساء الأوحد بل ثمة كثر من أمثاله أبرزهم نيتشه وشهريار في ألف ليلة ليلة وجيوفاني بوكاشيو. (المترجم).

ذاتي، من جهة، يرجع إلى أسباب شخصية وعائلية، وموضوعي، من جهة أخرى، يعود إلى أسباب ميتافيزيقية. فالمرأة هي التي تحمل بين جنبيها بذرة الحياة، بمعنى أنّها شرط إمكان أبدية إرادة الحياة. والحال أنّ إرادة الحياة ينبغي لها أن تفنى، ليس بالانتحار بالضرورة. وبما أنّ الرهان الأكبر في صاعقة الحب هو جيل المستقبل؛ فشوبنهاور يتنبأ أنّ الطور الأخير الذي ستبلغه الإنسانية «المتنورة» هو اتخاذ قرار حازم بعدم إنجاب أطفال وجعل النوع ينفق وينطفئ من ذاته، ومن هنا الطابع السلبي للحب.

أخيراً، أترك للقارئ العربي متعة اكتشاف فلسفة شوبنهاور عن الحب والنساء.

جلال العاطي ربي
سيدي سليمان، المغرب
2021/03/10

ميتافيزيقا الحب

«أنتم أيّها البصراء الجهابذة، يا أيّها العارفون بأرقى المعارف وأعمقها،
أنتم يا من يحزر كلّ شيء ويعلم كلّ شيء
كيف وأين ومتى يستحيل كلّ شيء واحداً،
لمَ عسى الكلّ يتحاب ويتداعب ويتلائم؛
باللّه عليكم، أيّها الحكماء الأفذاذ، أخبروني!
أفهموني بما يمور ويموج في دواخلي،
اجعلوني أكتشف أين وكيف ومتى
ولماذا يعتريني ما يعتريني.»

بورجر

إنّ هذا الفصل الذي بين يديك هو الفصل الأخير من بين أربعة فصول أخرى، تجمع بينها علاقات متعددة ومتبادلة، وتبدو كما لو أنّها تشكّل كلاً تابعاً وفرعاً من الأصل: وسوف يتنبه القارئ الأريب إلى ذلك، من دون أن ألزم نفسي، بإحالته وإعادة إرجاعه مراراً وتكراراً إلى الفصول الأخرى، فأضطر ـ بالتالي ـ إلى قطع حبل أفكاري المبسوطة ها هنا.

لقد دأبنا على النظر إلى الشعراء كرجال مستغرقين حتى الأذقان في تصوير الحب تصويراً شعرياً. فثمة في العادة تثوي الثيمة الأساسية لجملة الأعمال الدرامية، سواء التراجيدية منها أو الكوميدية، الرومانسية كما الكلاسيكية، الهندية كما الأوروبية، ناهيك عن أنّ الحب كان وما زال يشكل مادة خصبة لكلّ الشعر الغنائي والملحمي تقريباً، هذا إن نحيت جانباً ما يكمن من شعور خلف هذه القناطير المقنطرة من الروايات التي تصدر سنوياً وفي كلّ شعب وصقع من البلدان الأوروبيّة المتحضرة على ذات الوتيرة وبنفس انتظام ما تنبت الأرض من ثمار وفاكهة، وهذا منذ غابر الأزمان. وفي حقيقة الأمر، فلا تعدو تلك الأعمال الفنية أن تكون، من حيث محتواها الأساسي، غير تصويرات وتوصيفات فنية، تأتي مجملة حيناً ومستفيضة في التفاصيل حيناً آخر، بل دعوني أقول إنّها مجرد تلوينات لنفس الموضوع، أعني موضوع الحب. إنّ أبدع ما تفتقت عنه قريحتنا من فيض التصويرات الفنية وأكثر ما كلّله النجاح منها، مثل: مسرحية روميو وجولييت (لشيكسبير)، ورواية هيلويز الجديدة (لروسو)، وفيرتر (آلام الشاب فيرتر لغوته)، التي بلغت ذؤابة المجد وقُيّض لها الخلود إلى أبد الآبدين. بيد أنّ لاروشفوكو يقدر أنّ الولع بحبيب شبيه بطيف أشباح يتحدث الناس طراً عنه، على الرغم من أن لا أحد قد سبق ورآه؛ ويعترض ليشتنبرغ هو الآخر في بحث له بعنوان «عن

جبروت الحب ـ «Über die Macht der Liebe»، ويذهب إلى حد إنكار واقعية وطبيعية هذه العاطفة. وهذه لعمري أغلوطة كبرى. لأنّه إن اعتبر إحساساً غريباً ومتناقضاً مع الطبيعة الإنسانية، أو لنقل بعبارة أخرى، إن كان محض خيال أطفال، فلكان من المستحيل أن يظلّ، على مرّ كلّ الأزمنة والعصور، يوصف ويصور بلا كلل من طرف ذائقة الشعراء وأن يهيج تعاطفاً ثابتاً لم يتغير في الإنسانية برمتها؛ لأنّ لا جمال في الفن بدون حقيقة:

«لا شيء جميل غير الحقيقي، والحقيقي وحده جدير بحبّنا»

بوالو.

في الواقع، تثبت لنا التجربة، دون أن تتكرر كلّ يوم، أنّ ما يبدو لنا مألوفاً ومعتاداً مثل جنوح على أشده أو ميل مشط، لكنه قابلٌ لأن تُحكم السيطرة عليه، يمكن في ظرف من الظروف وفي حيثية من الحيثيات أن يتحوّل إلى عاطفة مشبوبة أو إلى شغف بلغ من الغلواء والعنفوان مبلغاً لا يقاس ولا يقارن بالعواطف والانفعالات الأخرى، الذي ـ باستبعادنا أيّ اعتبار أو باعث ممكن ـ سيذلل كلّ العقبات بجهد ورباطة جأش لا يصدقان، ومن ثمّ فلإرواء ذلك الميل الجانح وإشفاء غليله، لا نتردد ولو لبرهة في ركوب كلّ صعب وذلول والمخاطرة بحياتنا، بل

نبذلها بملء إرادتنا في سبيله في حالة الفشل المطلق في ذاك المسعى. ففيرتر وجاك أورتيس[1] ليسا شخصيتين روائيتين تؤثثان صفحات الروايات، ففي كلّ سنة تصدر نصف دزينة على الأقل، من الروايات في أوروبا. ولكنهما شخصان واقعيان ماتا ميتة جاهلية sed ignotis perierunt mortibus illi[2]، لأنّ مثل هؤلاء الفيرتريين والأروتيسيين ما وجدوا من مؤرخين آخرين كيما يحرروا ويوثقوا ما كابدوه من كلوم العذاب، ما خلا محرر سجلات رسمية أو مراسل جريدة. لكن يكفيكم قراءة تقارير الشرطة في الأوراق الرسمية الإنجليزية أو الفرنسية لتروا رأي العين ما قصدت لتوي، ولتقفوا على حقيقة مقالتي. ويضاف إلى التعداد الأول هذا الجيش العُرام من أولئك الذين زج بهم خطل تلك الصبابة إلى مستشفيات المجانين. وأخيراً، فقد بات من المألوف لدينا أن نشهد في كلّ سنة بضع حالات من الانتحار المتزامنة لعاشقين أو حبيبين، وقفت الظروف الخارجية في وجه حبهما، لكن ثمة هنا شيء ألفي نفسي عاجزاً عن فهمه؛ إذ كيف لكائنين، واثقين كلّ هذه الثقة في حبهما المتبادل، ويمنيان

---

(1) يعني هنا شوبنهاور بفيرتر وجاك أورتيس (بصيغة الجمع)، الفيرتريين والأورتيسيين في الحياة الواقعية، أي من بني الإنسان ممن كانت لهم نفس سيرة فيرتر وأورتيس. (المترجم).

(2) (هوراس، الهجاءات، الكتاب الأول، 3، v. 108)

نفسيهما باستمراء لذائذ هذا الحب والتنعم بطيب مباهجه، أن لا يجسرا على الانعتاق من عقال الروابط الخارجية وتحمل ما يرزحان تحت وطأته من شتى ألوان المعاناة والعذاب بدلاً من أن يبذلا، في آنٍ واحد، حياتهما هدراً، ويضحيا بسعادة لا شيء يمكن أن يكون أسمى منها؟ ـ أما فيما يخص درجات هذا الحب الدنيا وأعراضه الأولى، فأيما إنسان إلا ويراها يومياً ماثلة أمام ناظريه، ومن الوارد أن تستبد بشغاف قلبه دائماً تقريباً طالما بقي في ريق شبابه وزهرة عمره.

وإذن، فلا يخامرنكم شك ولا يداخلنكم ريب البتّة بحسب ما استحضرت لتوي من الوقائع والشواهد، لا في واقعية الحب ولا في أهميته. كذلك، فبدل أن نندهش لوهلة من أن فيلسوفاً لا يخشى ولا يتهيّب أن يتعرّض لمثل هذا الموضوع، الذي استأثر بعناية الشعراء ردحاً طويلاً من الزمن، ويتخذه موضوعاً خاصاً به، فلا بد إذن أن تستبد بنا الدهشة من أنّ هذه العاطفة التي تلعب دوراً من الأهمية بمكان في كلّ مناحي الحياة الإنسانية قد ظلت قابعة في الظلّ، ولم تسترعِ قط اهتمام الفلاسفة، ولا عالجوها بالتحليل، وظلت حتى الآن أرضاً بكراً فلا طرقها هذا ولا ذاك من الفلاسفة. وكان أفلاطون أول من وطأ تلك الأرض وأكثر من انشغل بالمسألة، وخاصة في «المأدبة» و«فيدروس». لكن بإمكاننا

أن نختزل كلّ ما قدمه أفلاطون من تأملات حول هذا الموضوع في أنّها مجرد أساطير، وحكايات خرافية ودعابات سمجة نسجها من بنات أوهامه، بل ما هي إلا مجرد فعل جنسي لواطي إغريقي. وحتى الغيض القليل ممّا قاله روسو حول هذا الموضوع في خطابه عن اللامساواة[1]، بعيد عن الصواب ولا يفي بالغرض لعدم كفايته. أمّا كانط الذي عالج المسألة كذلك بالتحليل، وتحديداً في القسم الثالث من مخطوطته عن «الإحساس بالجميل والجليل sublime [2]»، فقد كان تحليله فيها سطحياً تماماً، ربما بسبب قلة معرفته بالموضوع، ما يعني أنّ تحليله كان، على الأقل جزئياً، تحليلاً مهلهلاً سقيماً. أمّا بخصوص الاستقصاء الذي أنجزه بلاتنر Platner في كتابه «الأنثروبولوجيا»[3]، فإنّ كلّ من قرأه ألفاه من أوله إلى آخره محاولةً جوفاء وباهتة. وما أجدرنا أن نعرض التعريف الذي صاغه سبينوزا نظراً إلى سذاجته التي طاولت عنان السماء، ولنقرأه ولو على سبيل التسلية: «الحب هو الدغدغة، التي تصحبها فكرة (أو تمثل وتصور) علة خارجية ـ Amor est titillatio, concomitante idea causae externae»[4]. وبناء على

(1) (ص. 96، من طبعة Bip.).
(2) (ص.435 وما يليها، من طبعة روزنكرانتس).
(3) (§§ 1347 وما يليها).
(4) (علم الأخلاق، الباب الرابع، القضية 44، البرهان).

ما تقدم، أستشف أنّه لا يسعني لا أن أستعين بمن سبقني، حتى أنني لن أكلف نفسي عناء شنّ أي حرب عليهم ولا الطعن في ادّعاءاتهم. إذ إنّ الموضوع فرض نفسه بنفسه على تفكيري وجاء طوعاً لكي يتبوأ مكانه في مجمل تصوري للعالم. لا يسعني قط أن أعوّل على إقرار وتأييد أولئك الذين تستبد بهم هذه العاطفة ويسعون بشتى الحيل إلى الإفصاح عن مكنونات مشاعرهم، وعمّا يجيش في صدورهم من أحاسيس بأسمى الصور جلالاً وأعظمها مهابة وأكثرها أثيريّة، سيبدو تصوري للحب بالنسبة إليهم غارقاً في الفيزيائية، وممعناً في النزعة المادية، تصوراً ميتافيزيقياً فارغاً، متعالياً للغاية في جوهره. ألا فليستحضروا في أذهانهم مسبقاً أنّ هذا الموضوع العزيز على قلوبهم، الذي يقدح قرائحهم اليوم ويلهمهم قصائدَ غزلية خفيفة وسونيتات[1]، لو ظهر قبل ثماني عشرة سنة، لما كانوا ليلتفتوا إليه، ولا استحق منهم نظرة واحدة.

من المؤكد أنّ كلّ حالة حب (Verliebtheit)، ومهما كان مظهرها الأثيري الذي تزدان به، لها جذر متأصل في الغريزة الجنسية (Geschlechtstriebe)، أو لنغلو بالقول إنّها ليست شيئاً آخر عدا غريزة جنسية محتومة ومحددة بوضوح سلفاً، وكانت جلية بصورة أوضح، أو بالمعنى الدقيق للكلمة، إنّها غريزة أكثر

(1) (رباعيات الأدوار، قصائد من أربعة عشر بيتاً).

تفرداً وتميزاً[1]. هلاّ نظرنا الآن من دون أن نتناسى أو نغفل عن هذا المبدأ إلى الدور الحيوي والمركزي الذي يلعبه الحب، بكلّ مستوياته ودرجاته وتلويناته؟ ليس فقط كما نعاينه على ركوح المسارح وفي صفحات الروايات، لكن أيضاً في عالمنا الواقعي. ومع حب الحياة يتجلى لنا هنا كما لو كان أعتى وأقوى النوازع وأكبر البواعث حيوية ونشاطاً؛ إنّه يستأثر دائماً بنصف قوى وأفكار الفئة الأكثر شباباً من البشرية. ويكاد يكون الهدف الأوحد والمطلق لكلّ جهود الإنسانية[2]، إنّه يترك في كلّ الخطوب والقضايا وأكثر الأعمال أهمية، تأثيراً سلبياً مقيتاً؛ ففي كلّ حين يعطلنا عن أكثر مشاغلنا جدية، وفي أحيان أخرى يزعج ويربك، لنزر من الوقت، حتى نوابغ عقول الإنسانية وأكثرها عبقرية، وهو لا يتردد أبداً في أن يتدخل كمشوّش في مداولات رجالات الدولة وأبحاث العلماء، مستخدماً كل ما في جعبته من مشتتات؛ إنّه حاذق في

---

(1) يمثل هذا المقطع الأطروحة المركزية لكل الفصل، وعليه تبنى كل بنية الحجة لشوبنهاور. ودون أن نفصح عن كل ما سيأتي، يمكننا القول إنه علينا أن نفهم أن كل غريزة جنسية هي تجلٍ وتموضع لإرادة الحياة في الفرد المأخوذ بحب محبوبته. ولنتذكر دائماً أن شوبنهاور يسعى إلى دمج ظاهرة الحب في نسقه الميتافيزيقي. (المترجم).

(2) لنسجل أن شوبنهاور يوظف هنا استعارة ميكانيكية ليشدد من خلال أسلوبه على دور العلة الفاعلة أو المحركة. ومن ثم يمكن ترجمة عبارته بـ: «.... طاقة الحب أقوى من كل النوابض». ولنقرب المعنى إلى القارئ دون التوسل بأي لغة مجازية، فضلنا الترجمة المثبتة أعلاه. (المترجم).

إدخال أوراقه الناعمة وخصلات شعره في حقائب وزارية أو في مخطوطات فلسفية. إنّه يتسبّب كلّ يوم في إشعال فتيل النعرات والمشاحنات التي لا تنتهي، بل وأكثرها فتكاً وإهلاكاً، كما أنّه يقطع وشائج أثمن العلاقات، وينهي أوثق الأواصر، ويسلب من بعض صرعاه الحياة أو نعمة الصحة، وأحياناً الثروة ورغد العيش وزينة الحياة، وأحياناً أخرى يسلبهم المنزلة الاجتماعية والسعادة؛ فقد يحول رجلاً شريفاً إلى مجرد وضيع حقير بلا ضمير، ويجعل رجلاً آخر كان من قبل رمزاً للوفاء والإخلاص مجرد رجل تجري في عروقه دماء الخيانة. وبكلمة واحدة، فأينما ولينا وجهنا، ألفيناه ينظر إلينا كشيطان يجاهرنا العداء ويتمحّل بكلّ دهائه ومكائده لكي يقلب كلّ شيء رأساً على عقب، ويكدر وينغص ويبلبل كلّ شيء، فيوقعنا في الهرج والمرج. كيف لنا ألا نصرخ بملء فينا مستنكرين: «أي داعٍ لكلّ هذا الصخب والجلبة؟ لمَ كل هذا الضجيج والعجيج وعلامَ هذه النقمة؟ وما لنا وكلّ هذا التشوش القَلِق؟ ولمَ كلّ هذا البؤس؟». ويمكن القول، على وجه الإجمال، إنّ على كلّ قيس أن يبحث عن ليلاه[1]. لم كان على شيء بهذه البساطة والتفاهة، أن يتنزّل هذه المنزلة الرفيعة، ويأتي ليزعج وينغص ويفسد تنظيم وحسن تدبير الحياة البشرية؟

---

(1) حرفياً: على كل واحد أن يبحث عن واحدته. ويمكن ترجمتها أيضا إلى: على كلّ امرئ أن يبحث عن نصفه الآخر. (المترجم).

لكن بالنسبة للباحث الجاد والحريص، فسرعان ما تكشف روح الحقيقة تدريجياً عن الإجابة؛ لا، إنّ الأمر هنا لا يتعلّق البتّة بشيء تافه، بل على العكس تماماً، فأهمية الشيء قيد نظرنا يكتسيها تلقائياً من أثره وجذبه لنا، وأضنى الجهود التي نكرسها له. إنّ الهدف النهائي لكلّ قصة غرامية، سواء أكانت ملهاةً أم مأساة، إنّما هو في الواقع، هدف أسمى من كلّ ما دونه من أهداف الحياة الإنسانية، وهو يستحقّ الجدية العميقة التي نتعقبه بها. والأمر وما فيه أنّ ما يتقرر ها هنا ليس شيئاً غير إنجاب جيل المستقبل (Die Zuzammensetzung der nächsten Generation)[1]. وتفضي هذه المغامرات الغرامية الطائشة إلى تحديد وجود وطبيعة الشخصيات الدرامية (dramatis personae) المقرر لها أن تظهر بدورها في المشهد عندما نغادره نحن. وفضلاً عن ذلك، فكينونة (Sein) أو وجود (existentia)، هذه الشخصيات المستقبلية مشروط بالغريزة الجنسية بوجه عام، كما أنّ ماهيتها (Wesen ـ essentia)، محددة بالاختيار الذي يوقفه كلّ امرئ ليقضي وطره الشخصي؛ أي ليروي نزوات حبه الجنسية، فينتهي به المطاف،

(1) يصوّر شوبنهاور النوع (Gattung) على أنه فكرة بالمعنى الأفلاطوني للكلمة. والنوع؛ كما سنرى في موضع آخر، يؤمّن خلوده من انتقال جيناته في الأجيال الإنسانية المتعاقبة، وهذا ما يخلع أهمية كبرى على فخ الحب الذي ينصبه النوع للأفراد. (المترجم).

وعلى كلّ الصعد، إلى التحقق بشكل حتمي لا رجعة فيه. ذلكم مفتاح المشكلة؛ إنّ الممارسة العملية والتطبيقية تساعدنا على معرفته على نحو أفضل، فإن نحن استعرضنا مختلف مراتب الحب، من الإحساس العابر إلى الولع الأشدّ عنفواناً والأذكى اضطراماً، فإنّنا نستنتج أنّ الفرق الذي يفصل مرتبة عن أخرى يأتي من درجة التفريد التي تتحكم في الاختيار.

هكذا إذن، بالنظر إليها نظرة إجمالية، فجميع شؤون الحب الخاصة بالجيل الحالي، هي بالنسبة إلى العرق البشري بكليته، تأمّلٌ جدي عن تركيبة جيل المستقبل، الذي ترتبط به بدوره أجيال مستقبلية عديدة (meditatio compositionis generationis futurae, e qua iterum pendent innumerae generationes). في هذا الأمر الذي هو في غاية الأهمية، لا يتعلق الأمر، كما هو الحال في أمور أخرى، بالسعادة والشقاء الفرديين، بل بوجود العرق البشري وطبيعته النوعية الخاصة في القادم من القرون، وبناء على ذلك؛ فإنّ الإرادة الفردية تتمظهر هنا بكلّ قوتها، بوصفها إرادة للنوع. إنّ الأهمية العالية للهدف المتوخى بلوغه هي ما يجعل الأمر مثيراً للشفقة والشجن، وهي ذاتها ما يضفي روعةً وسحراً وسمواً على قصص العشق والغرام كافة، ناهيك عن الطابع المتعالي والمفارق لفورات الفرح وأنات الألم التي

يتسبب فيها. قبل آلاف السنين وضع الشعراء تحت تصرفنا نماذج لا تعد ولا تحصى، لأنّ لا ثيمة بوسعها أن تضاهي هذا الموضوع في أهميته؛ فبتناوله مصير النوع البشري سعادةً وشقاءً، هو بالنسبة إلى كلّ ما عداه من الموضوعات التي لم تُعنَ سوى بخير الفرد، كالجسد بالنسبة إلى السطح. لهذا السبب؛ من الصعوبة البالغة أن نبث الحياة في قطعة فنية أو مسرحية دون حب؛ وإليكم سبباً إضافياً آخر جعل معين هذا الموضوع لا ينضب أبداً، مهما استمر نهلنا منه على مدى الأيام.

إنّ الغريزة الجنسية، بوجه عام، كما تمثل في وعي كلّ واحد منّا، ومَن غير أن يكون موضوعها محصوراً في فرد محدد من الجنس الآخر، ليست في ذاتها، وبعيداً عن أي تمظهر خارجي، سوى إرادة مطلقة للحياة. ولكنها؛ أي الغريزة الجنسية، حين تمثل في الأذهان مستهدفة فرداً معينا كموضوع، فما تلك الغريزة الجنسية في ذاتها غير إرادة حياة بالنسبة إلى الفرد وقد غدت محددةً بدقة. وفي هذه الحالة، تصبح الغريزة الجنسية، وإن كنا نعلم حق العلم أنها في صميمها حاجة ذاتية خالصة، من الحذق والدهاء بحيث تحتجب تحت قناع إعجاب موضوعي يَسِر فتخدع الوعي؛ ذلك لأنّ الطبيعة تحتاج إلى حبك حيلها ونصب شراكها لكي تبلغ مآربها وتدرك غاياتها. ومهما بلغ هذا الإعجاب من الموضوعية

وكائنة ما كانت روعة الألوان التي يتلفّع بها، فما لحالة الحب هاته من غاية تهفو إليها غير ولادة فرد من طبيعة محددة. ودليلنا القاطع على ذلك؛ أنّ الأساسي والجوهري في تلك الحالة العاطفية ليس أن يكون الحب متبادلاً، وإنّما التملك، بمعنى المتعة الجسدية (physischer Genuss). إنّ يقيننا بأنّنا حصلنا على مقابل لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يكون عزاءً لنا لنحرم أنفسنا من تلك المتعة، فرغم أنّ رجالاً عديدين، في مواقف مشابهة، قد انتحروا بتفريغ رصاصة في رأسهم، وفي مقابل أولئك، فإنّ رجالاً آخرين عشقوا حتى الكلف والوله، ولكونهم قادرين على محبة أنفسهم، اكتفوا بالتملك، واقتصروا على الاستمتاع الجسدي. ودليلي الذي ينهض شاهداً على حقيقة ما أقول تلفيه في كلّ الزيجات المرتبة، وفي حالات الاغتصاب؛ لأنّ رجلاً يُجابَه برفض حبه يجبر خاطره بتقديم أجمل الهدايا لامرأة، وإن على كره منها، أو يقدم على تضحيات جسام ليخطب ودها ويطلب رضاها. إنّ إنجاب طفل معين، هو الهدف الحقيقي، وإن كان لا واعياً من قبل الشخصيات المحورية في كلّ رواية حب، فوسائل وطريقة بلوغه هي مجرد أشياء ثانوية. تتناهى إلى سمعي من هنا صرخات الاستهجان التي تصدح بها حناجر الأرواح الراقية رهيفة الإحساس، ولا سيما تلك الأرواح المتولهة التي اشتدّ بها الجوى وحيّرها الوجد، بسبب الواقعية الصارخة لوجهات نظري،

وفي مطلق الأحوال فليس الذنب ذنبي ولا الخطأ خطئي. وفي واقع الأمر، أليس تحديد فرديات الجيل المستقبل، غاية أسمى وأنبل وأولى من كل مشاعرهم المتعالية بفقاعاتها الصابونية فوق الحسية؟ أيعقل أن يكون من بين الغايات الأرضية، غايات أرقى وأعظم منها؟ فما من غاية أخرى تستجيب لعمق الحب المتّقد الولوع، بجاذبيته التي يبدو عليها، والأهمية التي يعلّقها على كلّ التفاصيل الصغيرة التي تمنطقه أو تثيره. لنفترض جدلا أنّ ذلك هو الهدف الحقيقي من الحب، إذن فالمصاعب الشاقة والدائمة، والجهود والعذابات الشديدة التي نكابدها من أجل الوصول إلى الموضوع المعشوق هي وحدها ما تبدو لنا متوائمة مع أهمية النتيجة. لأنّ جيل المستقبل، بتحدّده الفردي، واندفاعه بذلك الاضطراب وتلك المآسي، يفرض على نفسه الوجود. أي نعم، إنّ جيل الأحفاد سيمور ويتقلّب ويتشقلب في عملية الفرز المتأنية والدقيقة والدؤوبة، التي أنجزت من أجل إرضاء نزوات الغريزة الجنسية التي نسميها حباً. وفي الحقيقة، إنّ ميل العاشقين المحبين إلى بعضهما البعض، هو من جوهر إرادة حياة الفرد الذي سيرى النور، أي الكامن في قدرتهما ورغبتهما في إنجابه؛ أجل، فما إن تتلاقى نظراتهما التي تقدح شهوة ورغبة، حتى يكون وجود ذلك العقب المستقبلي قد تقرر. وبالنسبة إلى المستقبل، يُبشّر بهذا الوجود على أنّه فردية متناغمة ومتناسقة البنيان. إنّهما

يأنسان ويشتمّان رائحة الرغبة في أن يتوحدا فعلياً، وأن ينصهر كلاهما في بوتقة كائن واحد ليستمرا في العيش فيه ومن خلاله، وتجد هذه الرغبة سبيلها إلى التحقق من خلال إنجاب خلفهما، الذي ينقل إليه والداه مزاياهما وصفاتهما الخاصة لتتأبّد، بذوبانها في كائن واحد. في مقابل ذلك، فإنّ النفور المتبادل الحازم الذي لا يخبو ولا تغيره الأيام، بين رجل وفتاة يافعة لهو أدمغ الأدلة على أنّ من سيولد من صلبهما لن يكون إلا كائناً قميئاً متداخل المعالم، وبائساً شقياً. ومن هنا يتبين لنا أفصح بيان؛ المعنى العميق الذي أراد كالديرون[1] أن يصور به البشعة الرهيبة سميراميس[2]، في مسرحية عنونها بـ «بنت الريح»، حيث قدمت على أنّها ثمرة اغتصاب تلاه قتل الزوج.

إنّ ما يجتذب بقوة بالغة شخصين بعينهما من جنسين مختلفين، بعضهما إلى البعض؛ هو إرادة حياة كلّ النوع، الذي

---

(1) هو بيدرو كالديرون دي لا باركا (1600 ـ 1681)، شاعر ومؤلف مسرحي إسباني. ألف أكثر من مئتي مسرحية، واشتهر بمسرحيته «الحياة مجرد فكرة 1635». (المترجم)

(2) ساموراماتاتا (الفردوس) أو سميراميس (بالإغريقية) هي ملكة أسطورية آشورية حكمت قرابة الخمس سنوات في القرن التاسع قبل الميلاد. ألهمت كثيرين من أهل الفن والأدب والشعر والمسرح ومن أبرزهم الشاعر الإيطالي دانتي الذي استحضرها في الجزء الأول من «الكوميديا الإلهية»، وفي وقت لاحق فولتير في «تراجيديا سميراميس (1748)» وروسيني في «أوبرا سميراميد (1823)»، ومؤخرا أمين معلوف في «التائهون (2012)». (المترجم).

يتجسد بصورة مسبقة، ويستحيل موضوعاً واقعياً خارجياً بطريقة توافق أهدافه في كائن يمكن للفرديين أن يكونا سبباً في ولادته. وسيرث هذا الكائن الأخير من الأب الإرادة أو الطبع، ومن الأم عقلها، ومن الاثنين معاً بنيته أو تكوينه البدني. بيد أنّه فيما يخص صورته فإنّه سيكون أقرب شبها بالأب، وسيكون أشبه ما يكون بالأم فيما يتعلق بالقامة، وذلك وفق القانون الوراثي لتوليد سلالة الحيوانات؛ القانون المبني على حقيقة أنّ حجم الجنين يعود إلى اتساع وحجم الرحم. إنّ الحب الخاص والفردي بين عاشقين لا تفسره سوى الفردية الخاصة والحصرية التي تميز كلّ رجل على حدة؛ فالظاهرتان، في الجوهر، ليستا سوى نفس الظاهرة الواحدة، والظاهرة الثانية تعبّر على نحو صريح عمّا جاء بهيئة إضمار وإلماع في الظاهرة الأولى. وخليق بنا بحق أن نعتبر اللحظة التي أخذ فيها الأبوان في حب بعضهما ـ أو حين ولع أحدهما بالآخر، وفقاً لعبارة إنجليزية: «to fancy each other»، وهي في غاية الدقة ـ كصرخة ولادة لفرد جديد، كنقطة بداية (punctum saliens) لحياته. إن في تلك النظرات المختلسة الملتهبة، وأكرر ذلك، إن في تلك النظرات الملتهبة رغبة، والتي تتلاقى حينا وتتشخص حينا آخر، تبدأ أول بذار كائن جديد في التشكل، بذرة غالباً ما تترك لتتلف في نهاية المطاف، كما هو مصير سائر البذار. إنّ الضيف حديث العهد، هو إلى حد ما، فكرة

(أفلاطونية) جديدة؛ فبقدر ما تنزع كلّ الأفكار بكّل ما أوتيت من قوة ممكنة إلى أن تأخذ شكلاً ظاهرياً، وتستولي تبعاً لذلك بتلهّف على المادة التي جعلها قانون السببية موزعة بينها جميعاً، بقدر ما تكافح هذه الفكرة الخاصة بفردانية إنسانية وسع طاقتها، وبأشد ما يكون من الحمية والاندفاع لتتحقق في عالم الظواهر؛ ففي سورة تلك الرغبة المتّقدة يكمن الكلف والحب الذي خالط قلبي الأبويين المستقبليين. إنّ لهذا الحب مراتب ودرجات لا تقع تحت عد وحصر، لكن بوسعنا تعيين طرفيه دائماً باسم: الحب العامي أو الحب السوقي أو الحب المبتذل (باليونانية أفروديت العامية ـ πανδημος Αφφροδιτη) والحب السماوي (باليونانية أفروديت السماوية ـ ουρανια Αφφροδιτη)[1]. ولكن من حيث الماهية فالحب واحد ولا يختلف من مكان إلى آخر، وترتقي هذه العاطفة مراقي سامقة من السمو كلما كانت أكثر فردانية؛ بمعنى أنّه كلما كان الفرد محبوباً، بحكم تكوينه البدني وميزاته، كان أكثر قدرةً على إرضاء رغبات الكائن المحب والاحتياجات التي خولته لها فرديته الخاصة. وما سيأتي من فقرات سيوضح لنا بصورة أوضح وأبين ما قصدناه ها هنا. فأولاً، وبصورة أساسية يجعلنا الحب نميل على نحو مباشر وتفضيلي إلى شخص يتمتع

---

(1) بوسانياس هو من ميز في مأدبة أفلاطون بين هذين النوعين من الحب (انظر Banquet, 181e ـ 182a). (المترجم).

بالصحة والقوة والجمال، وبالتالي فهو يمثّل صبوة الشباب ونضارته، ذلك أنّ الإرادة تتطلّع قبل كلّ شيء إلى خلق الطبع النوعي المميز للجنس البشري، كأساس صلب لكلّ فردية؛ إذ إنّ المغازلات وأشكال التودد (πανδημος Αφφροδιτη)، التي تقع عليها أعيننا كلّ يوم، كثيراً ما تكون عابرة وقلما تدوم طويلاً. لتتشكل بعدئذٍ احتياجات نوعية أخرى ومتطلبات أكثر تخصيصا، وسنعالجها بالتفصيل فيما سيأتي، لكنها ما إن تجد فرصة للإشباع حتى تزداد نار الحب لهباً واستعاراً. وتبلغ سورة هذا الشغف أقصى ذراها حينما تتناسب الفرديتان فيما بينهما بصورة متبادلة، حيث تكون الإرادة؛ أي حين يُوجِد طبع الأب وعقل الأم باتحادهما هذا الفردَ الوليد الذي تتطلع إليه إرادة الحياة عموماً، حتى وإن كانت إرادة حياة النوع بكليته تمنّي النفس في تجسده واقعياً برغبة وتشوّف متناسبين مع عظمتها ويتجاوزان قدرات جَلَد قلب فان، كما تأتي الدوافع والبواعث، بطريقة مماثلة، خارج نطاق العقل والذكاء الفردي. تلك إذن، ماهية (Seele) الشغف الغامر والهيام الحقيقي (grossen Leidenschaft). فكلما كان التوافق المتبادل مثالياً بين فردين أشربا محبة بعضهما من شتى النواحي والمستويات، التي سنعمل على فحصها في موضع آخر من هذا الكتاب، كلما كان لهيب هذا الحب المتبادل بينهما متأججاً. وبما أنّه لا وجود لكائنين متشابهين حد التماهي المطلق،

فيوافق شن طبقة[1] دائماً، في العلاقة مع الطفل الذي سيخرج من صلبهما. إنّ الحب الحقيقي الذي يبلغ درجة الهيام نادر الوجود مثلما أنّ لقاء الشن والطبقة قلما يحدث. لكن يعرض أن يراود كلّ واحد منا شعور في أعماقه بإمكانية وجود مثل هذا الحب؛ لهذا السبب يمكننا تفهم التصورات الموجودة في الأعمال الشعرية. ليس لعاطفة الحب، في جوهرها، هدف غير إنجاب طفل بما يميزه من صفات ومزايا، وفي هذا الهدف بالذات تكمن نواتها. قد تتوثق بين شابين من جنسين مختلفين، نالا نصيباً من الحسن واللياقة، أواصر صداقة خالصة بإيعاز من توافق مشاعرهما وطبعهما وبنية ذهنيهما، وذلك من غير أن يتطرق إليها أي تفكير في الحب الجنسي. وفي واقع الأمر، يمكن أن يتسرّب إلى هذه الصداقة شعور بالنفور المتبادل أيضاً. وسبب هذا الإحساس هو أنّ الطفل الذي سيولد من نسلهما سيكون ذا صفات جسدية أو فكرية متنافرة يعوزها الاتساق والنظام، ولنقل بكلمة واحدة؛ لن يكون لا وجوده ولا طبيعته على وفاق وانسجام مع غايات إرادة الحياة، كما تفصح عن نفسها وتتمظهر في النوع البشري. أمّا في

(1) «يوافق شن الطبقة»: مَثَلٌ يُضرَب للدلالة على التوافق والتفاهم بين المتحابين أو المتزوجين، واللفظان في الأصل اسمان لرجل وامرأة عرفا بالذكاء. وبالعودة إلى نص شوبنهاور، فقد قصد حرفيا: «فلا يوافق رجل ما إلا امرأة محددة». (المترجم).

الحالة النقيضة، فعلى الرغم من تخاصم الأذهان وتنابذ المشاعر والأحاسيس، وتباين الطبع والبنية العقلية، وحتى النفور والعداء اللذين قد يتولّدا عن ذلك، يمكن للحب أن ينشب ويكافح من أجل البقاء، لأنّه يعمي أبصارنا عن كلّ هذه الانحرافات حولنا. لكن ما أشقى الزيجات التي تنتج عن مثل هذا الحب.

لنمض الآن قدماً ولنسبر المشكلة بعمق أكثر. لا ريب أنّ الأنانية هي على وجه العموم، جبلة تطبع كلّ فردية وهي ضاربة أطنابها في أعماق الفردية، إلى حد أنّه لكي تستحث نشاط كائن فردي وترفع من معنوياته، فالغايات الأنانية هي سبيلك الأوحد الذي يمكنك التعويل عليه بكلّ يقين. إنّ للنوع، وهذه حقيقة لا مراء فيها، حقاً سابقاً على الفرد، يثقل كاهله وهو من القوة والإلحاح بما لا سبيل إلى مقارنته بالفردية الفانية الهالكة. لكن، حينما يهم الفرد بمزاولة نشاطه، وحتى الإقدام على تضحيات من أجل تخليد النوع ومستقبله، ففكره الذي أُعِدَّ سلفاً من أجل وجوده الفردي فحسب، لا يمكن أن يتفطن إلى أهمية تلك الوظيفة، لكي يتصرّف ويسلك وفقاً لما يتناسب مع ذلك. وفي وضع كهذا الوضع، لا يمكن للطبيعة أن تبلغ هدفها إلا بإيقاع الفرد في حبائل الوهم (Wahn)، الذي يضلّله فيتوهم أنّ ما كان، في حقيقته امتيازاً للنوع، امتياز له هو نفسه، وحتى إن كان يخدم مصلحة

النوع عندما يتخيل أنّه يعمل لمصلحته الخاصة؛ يكون كمن يلاحق خيط دخان يتراقص أمام ناظريه، وسرعان ما يصير أثراً بعد عين، إذ يقوم بوصفه دافعاً، مقام الواقع. وقصارى القول، ما هذا الوهم إلا الغريزة. وفي أغلب الحالات يمكننا اعتباره كحس داخلي للنوع، مكلف بإخطار الإرادة وتنبيهها إلى ما يصب في صالح النوع. ولكن ها هنا غدت الإرادة فردية، وينبغي بعد ذلك تضليلها وأخذها بالمخادعة كيما يدرك الفرد قصد النوع (Sinn Der Gattung)[1]؛ أي بطريقة تجعل الإرادة تتوهم أنّها تحث الخطى نحو أهداف فردية، فيما هي في واقع الأمر تقفو آثار هدف نوعي (أي خاص بالنوع). إنّ الظواهر الخارجية للغريزة، وهذا أظهَر عند الحيوانات؛ لأنّ دور الغريزة عندها هو الأكثر أهمية، لكن سيرورتها الداخلية وعلى غرار أي ظاهرة داخلية أخرى، لا يمكننا التعرف عليها إلا في دواخل أنفسنا. إنّنا نعتقد جازمين أنّ الغريزة شبه معدومة في الإنسان، ما عدا في اللحظة التي يتحسس فيها ثدي أمه، وهو ما يزال مولوداً حديثاً. في الواقع، إنّ بين جنبينا تكمن غريزة ثابتة ومحددة المعالم، بالغة الوضوح وفي منتهى

(1) تتحدد الغريزة بأنها «حس النوع البشري»، أي بما به تتمظهر الطبيعة وتتجلى في الإنسان، وما به تصبح ذات دلالة ومعنى. فالغريزة هي العلة المحركة، المرتبطة وثيق الارتباط بالنوع، إنها المظهر السببي للإرادة الفردانية. وعليه، ستغدو الغريزة إنسانية مع شوبنهاور بعدما كانت حصراً بهيمية مع كانط. (المترجم).

التعقيد، وهي ما يوجه أدق اختياراتنا، وعادة ما تتصف بالجموح والغلو وبدرجة كبيرة من الهوس النزوي الغشوم، حين يهم الفرد إلى إرواء ظمأ حاجته الجنسية. وعلى وجه الإطلاق، فليس لهذا الإرضاء في حد ذاته، بوصفه استمتاعاً حسياً قائماً على حاجة ملحة للفرد، أية علاقة لا بجمال ولا بشاعة الشريك الآخر. ومن الواضح أنّ هذا البحث المحموم والتحري المتحمّس عن المزايا والمفاتن الجسدية، والاختيار الحريص والحذر المشروط بها لا يرتبطان، بطبيعة الحال، بالفرد نفسه الذي يختار، كما قد يذهب الخيال بهذا الأخير إلى الظن، وإنما هما وثيقا العرى بالغاية الحقيقية؛ أي بذلك الطفل الذي يتوجب إنجابه، الذي لا بد وأن يتخلّد فيه نوع الجنس (Typus der Gattung)[1] في صورة أنقى وطبق الأصل بقدر ما أمكن. وحقيقة الأمر أنّ ألف عطب جسدي، وألف جنوح أخلاقي سيفسد لا محالة الشكل الإنساني، غير أنّها دائماً ما تسوّى وتُستَعاد في نموذجه المثالي الحقيقي، وفي كلّ طرف من أطرافه وفي كلّ جزء من أجزائه، وذلك بتوجيه من حس الجمال، الذي يمسك دائماً بقياد الغريزة الجنسية، الذي

(1) عند الإنسان، تختار الغريزة الشريك الجنسي وفق معايير محددة بدقة من بينها الجمال؛ فالجمال يتعلق بنموذج النوع المثالي، وكلما كان الشريك جميلا كلما دنا من نموذج النوع ومثاله الخالص. اللفظ كذلك قريب من كلمة «الكلي» (المترجم).

بدونه ستنحط تلك الغريزة إلى مجرد حاجة رذيلة تبعث على القرف والغثيان. وهكذا، فكلّ كائن يوقف اختياره أولاً على الأفراد الذين يستهوون بصره ملاحةً وحسناً، بمعنى أنّه يوقفه على الذين ينطبع فيهم طبع النوع بصورة خالصة غير مشوبة، ويرغب فيهم بملء غلوائه، ثمّ سينقب في المقام الثاني، لدى فرد آخر عن الصفات الكمالية التي يفتقر هو تحديداً إليها؛ بل إنّه سيذهب إلى حد الشعور بأنّ النقائص والعيوب النقيضة لنقائصه وعيوبه، وكأنّها في منتهى الجمال، ما يجعل الرجال الأقزام من قصيري القامة، على سبيل المثال، يخطبون ود النساء الفارعات مديدات الطول، والشقراوات يحببن الرجال ذوي السحنة السمراء...إلخ. إنّ ما يقف وراء هذا الافتتان النشوان الذي يجتذب الرجل إلى هيئة ومظهر امرأة أتى جمالها على هوى رغائبه، ليزين في عينيه الاتحاد معها كما لو أنّ في هذا الاتحاد الخير الأسمى والسعادة المطلقة، هو ببساطة قصد النوع، ولنعترف هنا بالطابع، الذي يميز النوع بوضوح، تحدوه الرغبة في إدامته وتأبيده مع المرأة تلك. فبناء على هذا الانجذاب الذي لا يقاوم للجمال يكمن سر الحفاظ على النوع. ومن هنا أيضاً، تأتي سورة وقوة ذلك الانجذاب. وسنتناول لاحقاً بمزيد من التفصيل جملة الاعتبارات التي تتحكم في هذا النشاط. إنّ الرجل لموجه بحق في هذا الأمر بغريزة مندوبة لما فيه خير النوع، وهو يعتقد واهماً أنه السعي

وراء متعة قصوى نُدبت له هو ذاته. في الواقع، نأنس ها هنا إفادة على قدر كبير من الأهمية حول الطبيعة العميقة لكلّ غريزة، التي كما هو الأمر في هذه الحالة، ودائماً تقريباً، تسخّر الفرد من أجل خير ومصلحة النوع. لأنّ من البديهي النافل أنّ ما يجذب انتباه الحشرة إلى الرحيق الندي لهذه الزهرة بالذات أو تلك الفاكهة الغضة، أو ذلك الروث أو بقايا الفضلات، أو لتلتفت إلى هذه الشريحة المنتنة من اللحم، أو على غرار ما يصنع الذباب النمسي النزّاع بغريزته إلى تحضين بيضه في يرقات هذه الحشرة أو تلك، من غير أن يوقفها نصب ولا إعياء، ومن دون أن يردعها أي من الحوائل والمخاطر كيما تباشر مهمتها [الغريزية]، هو عينه الانتباه الحريص الذي يتجشمه الإنسان، وهي العناية ذاتها التي توجهه حين تباغته نزوة من الهوى المحرق، ويريد قضاء وطره، فيتوقف اختياره على امرأة بميزات محددة تناسب طبيعتها الفردية ذوقه، ولشد ما تعميه لذة الشوق المبرح، وسطوة العشق المحرق، يتناسى كلّ الحذر اللازم ليصل إلى غاياته، ويصلُ به الأمر في كثير من الأحيان إلى حد التضحية بسعادة حياته كلها ليعقد قراناً أخرق، عقب نزوة حب عابرة كلفته كلّ ثروته ثمناً، وكلّ شرفه مغبة، وكلّ حياته عقبى، وغير ما مرة بعد مقارفة جريمة ما مثل الزنى أو الاغتصاب! وكلّ هذا ليخدم على أحسن وجه ممكن مصالح ومآرب النوع، كيما يمتثل ويستسلم لإرادة الطبيعة التي

تسود في كلّ مكان، وحتى لو كان ذلك على حساب الفرد. في كلّ مكان، بالفعل، تتصرّف الغريزة كما لو أنّها تسعى وراء غاية ما، وإن كانت في الواقع بلا أية غاية[1].

وحيثما يعجز الفرد الفاعل عن فهم الغاية أو يرغب عن القصد إليها، تولّد الطبيعة الغريزة وتغرسها. فالدافع الغريزي، كقاعدة عامة، ليس معطىً سوى للحيوانات البهماء، وللحيوانات الدنيا، التي لا حظّ لها من الذكاء على وجه الخصوص. والإنسان هو الآخر نال نصيبه من الغريزة، وتقريباً في الحالة الوحيدة التي أشرنا إليها سلفاً؛ لأنّ الإنسان، حتى إن كان قادراً على فهم وإدراك الغاية، فهو لا يشمر للأمر بالهمة والحماسة الكافيتين، خاصة على حساب سعادته الشخصية. هنا إذن، كما هو شأن كلّ غريزة، لبست الحقيقة ثوب الوهم لتؤثر على الإرادة؛ فهذا الوهم المهيج للحواس والمثير للشهوات هو ما يُلبس على الرجل، فيتوهم أنّه سيرتشف رحيق لذة غامرة، وهو بين أحضان امرأة أسره جمالها، فغني بها عن سائر النساء. أو حين يلهمه الاعتقاد الراسخ بأن تملك امرأة بعينها هو السبيل الوحيد إلى البهجة القصوى. كذلك، يخيل إليه أنّ ما استفرغه من أنكب

(1) لسنا بعيدين هنا عن المفهوم الكانطي للغاية التي ليس لها هدف، انظر: «نقد ملكة الحكم ـ تحليلية الجميل». (المترجم).

الجهود، وما بذله من أفدح التضحيات كان من أجل استمتاعه الشخصي، والحال أنّ كل ذلك كان بغاية الحفاظ على النوع خالصاً جلياً نقياً، أو بغاية إنجاب فردية بمعالم محددة، لا يمكن أن تبصر النور إلا من نسل أولئك الآباء. ومن نافل القول إنّ هذه الميزة هي ميزة متولدة عن الغريزة، أي عن فعل نُفِّذ على ما يبدو، من أجل قصد نهائي، دون أن يكون مع ذلك قصد، يمكن للفرد، وهو في سكرة وهمه الخادع، أن يرتاب أو أن يتشكك وأن يُغيّر بعد ذلك اتجاه هذه الغاية التي تبقى هي وحدها ما يملك قياده، والقصد الذي نعنيه طبعاً هو الإنجاب؛ وهي الحالة التي تنطبع بها كلّ العلاقات غير الشرعية تقريباً. إذا كانت هذه هي خاصية عاطفة الحب المتقدة، فمن الطبيعي أن يشعر كلّ عاشق بعد أن يكون قد أشبع رغبته، بخيبة أمل لا يطويها النسيان، وأن تأخذه الدهشة والحيرة لكونه لم يجد في امتلاك هذه الغاية، التي طالما اشتهاها وتحرق شوقا إلى طلبها؛ أي استمتاع يزيد عن الاستمتاع بأي إشباع جنسي آخر، حتى لا يندفع بنفس الطريقة التي كان يندفع بها فيما مضى. فقد كانت هذه الرغبة حقّاً، كما هو شأن باقي رغباته، ما كانه النوع بالنسبة إلى الفرد، وبالتالي كما هو اللامتناهي بالنسبة إلى المتناهي. لكن الإشباع الشخصي، في جوهره، لا يخدم إلا مصلحة النوع وحده، ولا ينفذ إلى وعي الفرد، الذي هو كدمية تحركها خيوط إرادة النوع، بذل وسعه

بدأب وتفان وإخلاص سعياً وراء غاية ليست غايته. وهذا ما يحمل كلّ عاشق، بعدما ينتهي من إنجاز العمل العظيم، على أن يدرك أنّه كان مخدوعاً في النهاية؛ لأنّ غشاوة الوهم، التي أعمت بصره وبصيرته فجعلته غرّاً ومخدوعاً من النوع، قد انجلت عن عينيه. لقد أصاب أفلاطون كبد الحقيقة حينما قال: «لا شيء يمكنه أن يخدعنا أكثر من اللذة[1] ـ (ηδονη απαντων αλαζονεστατον) (فيليبوس، 65c)».

ومن جهة أخرى، فكلّ هذا يسلط من جانبه ضوءاً كاشفاً على الغرائز وعلى صنائع الحيوانات[2]. فلا شك أنّه تحت سطوة ضرب من الوهم غذى الأمل بطيب بهجة خاصة، بعدما زيّنها في عيون تلك الكائنات العجماء، فيكدون ليل نهار ويواظبون على ذلك بتفانٍ دؤوبٍ وبذلِ نفسٍ من أجل خير وصالح النوع، فترى هذا الطائر يبني عشه، وتلك الحشرة من الهوام، وهي تنقب عن مخبأ ملائم لوضع بيوضها، أو وهي تنقضّ على طريدة لن

(1) يمكن ترجمتها أيضا بـ «اللذة أعظم المحتالين». (المترجم).

(2) استخدم هنا شوبنهاور الكلمة المركبة «Kunsttriebe». ولقد ترجمت ترجمات متعددة؛ ففي الفرنسية ترجمت إلى «les pulsions industrieuses= الدوافع الماهرة» (2009)، وإلى «l'industrie des animaux= مهارة الحيوانات» (1960)، في حين ترجمت في الإنجليزية إلى «mechanical drives= الدوافع الميكانيكية» (2011). وما دامت صنائع الحيوانات تحضر فيها الغريزة والدافع والمهارة اخترنا هذه الترجمة. (المترجم).

تفترسها في اللحظة ذاتها، وإنّما لتضعها على مقربة من البيوض، كقوت ليرقاتها التي ستخرج بعدئذ إلى الوجود؛ والنحلة والدبور والنملة المكبّين على بناء جحورهم ومستعمراتهم وأعشاشهم بمهارة وحذق وتنظيم وتنسيق في غاية التعقيد. من المؤكد أنّ كلّ هذه الحيوانات والهوام يوجهها وهم، يحجب خدمة مصلحة النوع بقناع غرض أناني. وهذه على الأرجح الطريق الوحيدة الممكنة لفهم العملية الداخلية أو الذاتية، التي تنبثق منها كلّ مظاهر الغريزة. ولكن من الناحية الخارجية أو الموضوعية، فإنّ هذه الغريزة، التي تحكم سيطرتها على الحيوانات والهوام، ولدى الحشرات تحديداً، تتمظهر بالنسبة إلينا من خلال غلبة الجهاز العقدي (العقدة اللمفاوية)؛ أي رجحان وسيادة الجهاز العصبي الذاتي (الداخلي)، على الجهاز الدماغي، الذي هو جهاز موضوعي وخارجي، وتبعاً لكلّ ذلك، في وسعنا أن نستخلص أنّ تلك الحيوانات والهوام تكون مدفوعة لأن تسلك وتتصرّف لا من خلال تصوّر دقيق وسليم للأشياء في حد ذاتها، وإنّما من خلال التمثلات الذاتية، أي مصادر الرغبة، والراجعة هي ذاتها إلى تأثير الجهاز العقدي على الدماغ، أي إنّها، في خاتمة المطاف، ليست إلا بنت وهم وشطط خيال؛ تلك كانت السيرورة الفسيولوجية لكلّ غريزة (أي طريقة اشتغالها). ولمزيد من الإيضاح، سأذكر أيضاً، وإن كان ذلك ليس بالبرهان القاطع والناجز، مثالاً آخر

للغريزة في الكائن الإنساني: إنّه الاشتهاء أو النزوع النزوي للنساء المكتنزات جسيمات البدن؛ ويبدو أنّ هذا النزوع ينشأ من واقعة أنّ تغذية الجنين قد تستلزم أحياناً تغييراً خاصاً أو محدداً للدم الذي يصل إليه، من خلال المشيمة، فالطعام الذي يؤدي إلى هذا التغيير سرعان ما يغدو موضوع وحم المرأة الحبلى التي تستبد بها شهوة ملتهبة إليه. فها هنا أيضاً، نأنس حضوراً لوهم يحدث. إنّ المرأة، بالنتيجة، تملك غريزة زائدة عما عند الرجل، وفضلاً عن ذلك فإن الجهاز العقدي أكثر تطوراً عند المرأة منه عند الرجل. ـ إنّ رجحان الدماغ في الرجل وتمتعه بقوى وملكات عقلية أكبر، هو ما يفسر لم كانت له غرائز أقل من الحيوانات، ولم كان على هذه القلة القليلة من الغرائز التي جبل عليها أن تضل وتؤخذ بالخديعة بسهولة ويسر؛ فهذا الحسّ الفطري بالجمال، الذي يوجه غريزياً اختيار رجل لشريك حين يريد إشباعه الجنسي، ينحرف إذا انحلّ إلى ميل جنسي لواطي؛ وتنطبق الحالة نفسها حتى على الذباب الأزرق (musca vomitoria)، الذي بدلاً من وضع بيوضه، حسب دافع الغريزة، على اللحم الفاسد المنتن يضعها فوق زهرة أروم الدراكونكولوس (arum dracunculus)[1]، منخدعاً برائحة الجثث المتعفنة التي تنبعث من هذه النبتة.

---

(1) تعرف هذه الزهرة أيضاً بملتهم الذباب. (المترجم).

إنّنا على يقين لا يرقى إليه الشك أنّ كلّ حب جنسي يقف على أساس غريزة غايتها الأولى والأخيرة الطفل الذي ينبغي إنجابه، وذلك من خلال تحليل دقيق لهذه الغريزة، وهو تحليل لا نرى أبداً أنّنا في حل منه ومن ثمّ فلا مناصَ لنا من مباشرته. وبادئ ذي بدء، لا بدّ أن نستحضر في ذهننا هنا أنّ الرجل بطبيعته، عشاق ملول في الحب (كثير العشق سريع الضجر والسأم) ونزّاع إلى اللاثبات. على عكس المرأة التي تحب الثبات والاستمرارية والاستقرار فتنذر حياتها لنفس الشخص.

إنّ حب الرجل سرعان ما يخمد ويستحيل رماداً، بمجرد ما ينطفئ ضرام شهوته؛ وينجذب إلى كلّ النساء أو يكاد ما عدا تلك التي في ملك يمينه، إنّه دائماً ما يمنّي النفس بالتغيير ويتوق إلى الجديد. فيما حب المرأة، في المقابل، يكبر شيئاً فشيئاً بدءاً من لحظة وقوعها في حبائل الحب، وهذه النتيجة تأتي على وفق الغاية التي أرادتها الطبيعة، أي المحافظة على النوع وتكثير سواده. إنّ الرجل لقادر، دونما عناء، أن يفرخ في السنة الواحدة زهاء مئة طفل ويزيد، إذا كان طوع يده عديل ذلك من النساء، في حين أنّ امرأة واحدة ولو في وجود نفس العدد من الرجال، ليس في مقدورها في مطلق الأحوال أن تنجب إلا طفلاً واحداً في السنة (سأضرب صفحاً عن الحالات التي يولد فيها

التوائم). وهذا هو السبب الذي يجعل الرجل دائم البحث عن نساء أخريات. والمرأة في المقابل، تقبض بالنواجذ على رجل واحد، لأنّ الطبيعة تدفعها، بالغريزة ومن غير وعي منها، إلى أن تكرّس نفسها لذلك الذي سيؤمن الطعام والشراب والحماية للنسل الموعود. ولهذا، فالإخلاص والتعفف في الزواج، بالغ التصنّع عند الرجل، في حين أنه مسلك طبيعي بالنسبة إلى المرأة. وعليه، فإنّ زنى أو دعارة المرأة، من وجهة نظر موضوعية، بسبب ما يمكن أن يتبعها من وبيل العواقب، كما هو من وجهة نظر ذاتية أيضاً، بوصفها فعلا يناقض طبيعتها، هي فعل شنيع وجريمة نكراء لا تغتفر في حال المرأة، بينما تغتفر بالنسبة إلى الرجل.

لكن ولكي نمضي أبعد إلى جوهر الأشياء ولتترسخ قناعتنا رسوخاً لا يتزحزح قيد إصبع بأنّ هذا الانجذاب إلى الجنس الآخر، مهما بدا موضوعياً، فهو ليس شيئاً آخر غير غريزة مقنّعة؛ ما يعني أنّ حس أفراد النوع مندوب ليحافظ على النوع. ومن الضروري كذلك أن نتحرّى عن كثب الاعتبارات التي نحسب لها ألف حساب، أو المعايير التي تحرك وتوجه اختيارنا، وأن نخوض في تحليل معالمها المميزة بالتفصيل، حتى إن كان من العجيب والغريب أن نرى مثل هذه المظاهر الخاصة واردة في مؤلف فلسفي.

إنّ هذه المعايير أو الاعتبارات من ضروب شتى، بعضها في علاقة مباشرة بالنوع، أعني الجمال، ولبعضها الآخر صلة قربى بالصفات أو المزايا النفسية، وثمة اعتبارات أخرى، تكون في نهاية الأمر مرتبطة ببعضها؛ إنّها متأتية من ضرورة تصويب وتقويم اعوجاج بعضها أو تحييد بعضها بواسطة البعض الآخر، بتصحيح الصفات الأحادية والنواقص والمثالب والحالات الشاذة التي تعتري الفردين معاً. وسنعمل لاحقاً على بسطها واحدةً تلو الأخرى.

إنّ الاعتبار الرئيس الذي يتحكم في اختيارنا، وفي ميلنا إلى هذا الفرد أو ذاك، هو السن. إنّنا بصفة عامة نبحث عن سن وسط بين بداية الطمث ونهايته؛ أي إنّنا نعطي الأولوية في الاختيار لنسوة تتراوح أعمارهن بين ثماني عشرة سنة وثمانٍ وعشرين سنة. وعلى الضدّ من ذلك، فكلّ من هنّ خارج هذه السن لا يمكن في مطلق الأحوال أن يثرن اهتمامنا؛ فالمرأة العزوم العجوز، تلك التي تخطّت طور الطمث وبلغت سن اليأس، لا تثير في نفوسنا إلا إحساساً بالنفور والاشمئزاز. فأن يكون المرء في ميعة الصبا وعز الشباب فهو دائماً ما يحافظ على جاذبيته وسحره الآسر، ولو كان دميم الخلقة بشع الهيئة، أما الحسن الرائع والجمال الفاتن بلا غضاضة الشباب، فهو على العكس من ذلك. ولا شك أنّنا لن

نترك الحبل على الغارب لملكة التكاثر العامة، لتوجهنا في ذلك من دون سابق علم منا، فكلّ فرد يفقد من سحره وجاذبيته في عين الجنس الآخر إلى حد أنه ينأى بعيداً عن الفترة الأصلح والأمثل للتناسل أو للحبل. أما الاعتبار الثاني: فهو اعتبار الصحة والخلو من العيب؛ إذ إنّ الأوصاب والأدواء الشديدة لا تكدّر صفونا إلا مؤقتاً، أما الآفات المزمنة أو السقام فهي ذرائع موجبة للهجر والصدود؛ لأنّها يمكن أن تورّث إلى الطفل. الاعتبار الثالث: هو اعتبار هيكل أو بنية الجسم الذي عليه يقوم أساس بنيان نموذج النوع المثالي. فبعد الجنس والمرض لا شيء أشدّ بغضاً وتنفيراً وإثارة للاشمئزاز من مظهر جسم مشوه الخلقة عليل التركيب، فالطلعة البهية والمحيا الصبوح لا يمكن أن يعوضا بحال ذاك التشوه، وسنؤثر بطيب خاطر وجهاً بشعاً لو صادف وكانت صاحبته هيفاء القد. وزد إلى ذلك إنّ فقد التناسب في بنية هيكل الجسم، غالباً ما يثير صدمتنا، كأن يكون مثلاً الجسم غثيثاً نحيلاً، مربوعاً ومنكمشاً على نفسه، منخفضاً على الساقين، أو حين يغمز في سيره كالأعرج، هذا إن لم يكن ناجماً عن حادثة خارجية.

إنّ الجسم جميل القوام والبنية يمكن في المقابل أن يسد مسد كلّ العيوب والنقائص، فلا نقوى على مقاومة سحره الذي يخلب الألباب. ولا بدّ أن نذكر هنا الأهمية القصوى التي نعلقها على

قصر طول القدم، وهي الأهمية المبنية على واقعة أنّ الأقدام تمثل خاصية أساسية للنوع، ففي حقيقة الأمر، لا يوجد حيوان من الحيوانات الأخرى يملك رسغاً ولا مشط القدم، حتى إن نظرنا إليها في كليتها، فهي أصغر بكثير من أقدام الإنسان، التي تتسق في وضعية قائمة في أثناء السير؛ من جهة كونه أخمصي السير (أي يمشي على باطن قدمه). كذلك سيقول يسوع بن سيراخ[1]: «إنّ امرأة حسنة الخلق ولها أقدام جميلة لهي أشبه بأعمدة من ذهب وضعت على قواعد من فضة». كذلك، للأسنان في موازين الرجال أهمية كبيرة، لأنّ حالتها الجيدة أساسية في عملية التغذية، ولا سيّما أنّ الحالة تلك تنتقل إلى الأبناء بالوراثة. ويتعلق الاعتبار الرابع: بامتلاء الجسد؛ أي هيمنة وغلبة الوظيفة التكاثرية، ولدونة العود وقابلية التشكل التي تتيح للجنين غذاءً جزلاً وفيراً؛ فالهزال والنحافة الشديدة يثيران في نفسنا نفوراً فريداً من نوعه. إنّ منظر المرأة الثدياء والفتاة الكاعب يمارس سحراً مدهشاً على الجنس الذكوري؛ لأنّه يوجد اتصال مباشر بين الثدي الناهد ووظائف التوالد عند المرأة، ما يعد بإغزار الوليد الحديث العهد بما يسد رمقه ويقيم أوده من وفير الغذاء. وفي المقابل، النساء العجفاوات معروقات العظم لا توحين لنا إلا بالنفور، والعلة كمينة في أنّ

---

(1) (XXVI، 23، حسب الترجمة المنقحة لكراوس).

نسوةً بتلك الخلقة، وعلى تلك الهيئة عرض من عوارض ضمور وهزال رحمهن، ومن ثمّ ففي ذلك علامة تدلّ على عقمهن؛ ولئن كان الذهن لا يتفطّن للأمر ولا يأخذه في الحسبان، فالغريزة على عكسه تفطن إلى ذلك. ولا يأتي الاعتبار الأخير: اعتبار قسامة الوجه وبهاء الطلعة إلا في المرتبة الأخيرة. هنا أيضاً تأتي الأجزاء العظمية، قبل أي شيء آخر، في أول حسباننا؛ لأنّنا نمنح جمال الأنف قيمة كبيرة؛ فالأنف القصير أو الأخنس أو الأفطس يفسد كلّ شيء. فتقوّس قصبة الأنف، ولو قليلاً، نحو الأسفل أو الأعلى، يرهن مصير سعادة الكثير من العذارى، وهذا راجع على وجه الدقة، إلى كون المسألة هنا تتعلق بشكل النوع. فأن يرتسم على طلعة غراء ثغر صغير مزموم، مع فكين صغيرين، لهو من الضرورة بمكان بوصفه سمة أساسية مميزة للوجه الإنساني، على خلاف ما تتميّز به أفواه الحيوانات. وعلى الأرجح، لن تستثير فينا الذقن الغائرة المجدوعة بشكل من الأشكال غير مشاعر التقبّض والنفور، لأنّ نتوء الذقن أو بروزه (mentum prominulum) هو، بلا منازع، السمت الحصري المميز لنوعنا. وأخيراً، يأتي اعتبار جمال العينين والجبهة: لهذين العضوين صلة قربى وثيقة مع الخصال والمزايا النفسية، ولا سيما الشمائل والمناقب الفكرية التي تنقلها الأم بالوراثة.

أمّا الاعتبارات أو البواعث اللاواعية التي توجّه، من جهة أخرى، ميل النساء نحو الرجال، فليس في وسعنا بطبيعة الحال أن نستعرضها على أكمل وأدق وجه. وجملة القول، إليكم ما يمكننا توكيده: إنّ النساء يفضّلن الرجال في سن تتراوح من ثلاثين إلى خمس وثلاثين سنة، ويفضلن هذه الفئة من الرجال حتى على الشباب الذين لامس فيهم الجمال الإنساني كماله. لأنّه ليس ذوقهن هو ما يوجه اختيارهن في الجوهر، وإنّما الغريزة، التي تجعلهن يأنسن في الرجال من هذه السن القوة التوليدية التي تنبئ عن فتوة وفحولة لا تفتر. وعموماً، إنّهن لا يلقين بالاً إلى الجمال إلا قليلاً، ولا سيما جمال الوجه، كأنّهن يردن القول إنّهن يستأثرن لوحدهن بحق وهب جمال الصورة وتوريثها إلى أبنائهن. إنّ ما يجتذبهن تحديداً، هو جلد الرجل وقوته، والشجاعة التي تنجر عنهما بطبيعة الحال. إنّ هذه المزايا والامتيازات لكفيلة بأن تضمن لهن إمكانية إنجاب أطفال أشداء البأس وأقوياء وفي الوقت نفسهِ ستؤمن لهنّ، رجلاً حامياً مهاب الجانب. وبالنظر إلى الطفل، فالمرأة بإمكانها في أيام الحبل، أن تصلح وتقوم أي اعوجاج أو تشوه نجم عن عيب خلقي في الرجل، أو انحراف عن النموذج المثالي الذي أراده النوع، طالما أنّها، فيما يخص هذه الجزئيات، سوية الخلق بديعة المحاسن لا شائبة فيها. وينبغي فقط استثناء المزايا الخاصة بالجنس الذكوري، وما ليس في

ميسور الأم أن تمنحه للطفل بعدئذ: ويدخل في باب ذلك البنية الذكورية للهيكل العظمي، واتّساع الكتفين، والوركين الضيقين، والساقين المستقيمين، وقوة العضلات، والشجاعة، واللحية، وهلم جرّا من مثيل ذلك. لهذا السبب بالذات تحبّ النساء في أغلب الحالات رجالاً دميمي الخلقة شنيعي المرأى، ولكنهن لا يخترن أبداً رجلاً يعدم المزايا الفحولية التي ذكرناها سابقاً؛ لأنّهن لا يستطعن تحييد وقع غيابها في الرجل.

ويهتم الضرب الثاني من الاعتبارات، التي هي بمثابة حجر الأساس في الحب، بالمزايا والصفات النفسية. وسنكشف هنا أنّ المرأة تستدرج، بصفة عامة، وتنشدُّ إلى مزايا القلب والطبع الحسن أو الخلق في الرجل (شخصيته)، وكلاهما موروث عن الأب. فرباطة الجأش المتصلبة للإرادة أساساً، وقوة العزم والتصميم، والشجاعة، وربما كذلك الولاء والصدق وطيبة القلب هي ما تخلب لب المرأة. وعلى النقيض من ذلك، فالمزايا الفكرية ليس لها على النساء أية سلطة مباشرة أو غريزية؛ ببساطة لأنّ الأب ليس مصدرها. إنّ قلة الذكاء أو الغباوة ليستا نقيصة ولا عيباً في عين النساء ولا يقمن لهما وزناً، والتفوق الراجح للقوى الذهنية، أو حتى العبقرية، قد تبدو لهن في المقابل انحرافاً أو شذوذاً خليقاً باستهجانهن واحتقارهن. ويحدث مراراً وتكراراً،

أنّ رجلاً قبيح الملامح جافي الخلقة، وأحمق وغبيا وبذيء اللسان فظ الخلق، أن ينال غاية مطلوبه من النساء حين ينافسه على حظوتهن رجل وسيم قسيم، ورقيق الشمائل، وعالي الذكاء والفطنة والنبوغ. ومن هنا، تعقد زيجات الحب أحياناً بين أفراد متنافرين تماماً فيما يتعلق بالذكاء والطبع. فمثلاً، قد يكون الرجل بذيئاً وصلب العود وشديداً وضيق الأفق، فيما تكون هي؛ أي المرأة رهيفة الإحساس، وتتمتع بذهن متقد نافذ البصيرة، مهذبة ومثقفة، ومحبة للجمال... إلخ. أو قد يكون هو رجلاً عبقرياً وعالماً وهي بلهاء غبية[1].

على هذا قرت إرادة فينوس؛ واستمرأت، بلعبة شيطانية فظة، أن ترسل أجساداً وأرواحاً متنافرة وغير متجانسة لتنوء تحت نير الاستعباد[2].

«Sic visurn Veneri ; cui placet impares

Formas atque animos sub juga aenea

Saevo mittere cum joco»[3].

إنّ الباعث والسبب الحقيقي وراء ذلك، أنّ ما يتدخل ها هنا هي الاعتبارات الغريزية، لا الاعتبارات الفكرية. إنّ ما نسعى

(1) حرفيا: ... وهي إوزة. (المترجم).
(2) (هوراس، القصائد الغنائية، الجزء الأول، 33، البيت العاشر).
(3) (Horace, Odes, I, 33, v. 10)

وراءه في الزواج، ليس سلوى العقل، إنّما إنجاب الأطفال. الزواج هو اتحاد قلبين، وليس اتحاد عقلين. وإنّها لحماقة وخفة عقل خرقاء أن تدّعي المرأة أنّها هائمة بحب عقل الرجل، أو لربما كان ذلك في سبيل التزيد والمبالغة في تقريظ كائن منحط. الرجل، في المقابل، ليس مقيداً ومحكوماً في حبه الغريزي بمزايا وطبع المرأة؛ فالكثير من أمثال سقراط قد ابتلوا بمثيلات كزانتيب[1]، على غرار شكسبير، وألبرشت دورر، وبايرون[2]... وآخرين. وفي هذه الحالة فإنّ للمزايا الفكرية التأثير الأكبر والوقع الأكثر فداحة، لأنّها موروثة عن الأم. بيد أنّ تأثير جودة الفكر سرعان ما يطغى عليه ويبزه الجمال الجسدي الذي ينصرف إلى ما هو أساسي وجوهري، ومن ثمّ يكون له وقع فوري وأثر مباشر.

ومع ذلك، فقد يتفق أن تذهب الأمهات، تحت وقع الإحساس بذلك التأثير أو في إثر اختباره، إلى دفع بناتهن إلى تعلم الفنون الجميلة واللغات وما إلى ذلك، كيما يغوين الرجال ويبدين في أعينهم جذابات آسرات، ومن ثم يمنّين بهذه الطريقة النفس بحشو العقل بوسائل اصطناعية بالكامل، كما هو الحال،

---

(1) هي زوج سقراط التي اشتهرت بسلاطة لسانها وسوء معاملتها له. (المترجم).

(2) جورج غوردن بايرون (1788 ـ 1824): شاعر رومانسي بريطاني، من أبرز قصائده «رحلة الفارس هارولد (1812) ودون جوان (1822)». (المترجم).

حين يعمدن إلى ملء الصدور أو الوركين إذا لزم الأمر. ويجمل بنا أن نذكر أنّ الأمر لا يتعلّق هنا إلا بتلك الجاذبية الساحرة الفورية، والغريزية الجديرة وحدها بإيقاظ نار حالة حب حقيقي ملتهب. أن تقدّر امرأة ذكية ومثقفة ذكاء وعقل الرجل؛ وأن يختبر ويبتلي رجل حذر وحصيف وعاقل خلق وطبع خطيبته، ويأخذه في حسابه، تلك أمور لا تزيد ولا تنقص ولا تغيّر شيئاً في موضوع حديثنا هنا. مثل هذا الامتحان لا يمكن أن يصلح كأساس إلا من أجل اختيار عقلاني لمن أراد الزواج، وليس من أجل الحب الذي يستبد بشغاف القلب، وهو الموضوع الذي آلينا أن نشغل أنفسنا به هنا.

إلى هنا لم آخذ في الحسبان إلا المعايير أو الاعتبارات العامّة، بمعنى تلك التي تصلح للكل وتسري على جميع الرجال بلا استثناء، وقد حان الوقت لأباشر الاعتبارات النسبية، وهي اعتبارات فردية في أصلها، لأنّها غايتها، في حقيقة الأمر، تصويب وتقويم أفراد النوع الذين يعتريهم عيب أو خلل، وتصحيح الانحرافات والشذوذات الموجودة مسبقاً في الشخص نفسه الذي يختاره، والانتهاء بذلك النوع إلى نقاوة خالصة. وفي هذه الحالة، فكلّ امرئ بالتبعة لا يحب إلا ما ينقصه وليس فيه. فانطلاقاً من الطبيعة الفردية وأستهدافاً للطبيعة الفردية نفسها، يكون الاختيار المشروط

بهذه الاعتبارات النسبية اختياراً ثابتاً، لا جدال، وأكثر حصرية من ذلك الاختيار المبني على اعتبارات نسبية فحسب. وعلى ذلك، وبصفة عامة، يجب في هذه الاعتبارات النسبية البحث عن منشأ وأصل الحب الشغوف حقاً، في حين إنّ الاعتبارات والبواعث والدوافع الأولى (يقصد الاعتبارات المطلقة) لن تفضي إلا إلى ميول عادية نارها باردة. وحتى لا تترسخ كفكرة نمطية جاهزة، فالنساء بارعات الجمال، اللاتي يلامسن في بهاء حسنهن الكمال، لسن هنّ في العادة من يقدحن لهيب الأهواء الكبزى. إنّ الحب اللاعج فعلاً لا يمكن أن يتولّد إلا بشرط واحد؛ ولأحسن التعبير فإنّ استعارة كيميائية ستفي بالغرض: ينبغي على الشخصين أن يجعلا بعضهما محايدين بالتبادل، مثل حمض وقلوي لتشكيل ملح متعادل[1]. ولهذا الغرض، فنحن في حاجة إلى الكثير من التحديدات المسبقة؛ وهي من حيث الجوهر كالآتي:

في المقام الأول، كلّ جنسانية أحادية الجانب ومتخصصة. وهذه التخصصية تكون أظهر في عمرو أكثر من زيد وتتردد في فرد بعينه أكثر من سواه. كما يمكنها أيضاً (التخصصية) في كلّ فرد، فتكتمل أو تصير متعادلة بمساعدة فرد معين من الجنس

(1) بمعنى ملح يتكون من حمض وقاعدة متساويي القوة، ومثال ذلك كلوريد الصوديوم. (المترجم).

الآخر؛ لأنّ كل كائن إنساني يحتاج من العضوية الفردية المقابلة له، ليتحقق أمثل تحقق نوع الإنسانية في الفرد الذي سيبصر النور، والشكل أو الخلق الذي تؤول إليه كل الجهود في النهاية. لا يخفى على علماء الفسيولوجيا أنّ الجنسانيتين الذكرية والأنثوية تنطويان على عدد كبير من الدرجات، التي من خلالها يمكن لإحداهما أن تنحدر إلى درك منفر مثل ازدواجية الجنس (gynanthropie)[1] وتشوّه الإحليل التحتي (hypospadias). ويمكن للأخرى أن تصل إلى درجة الخنثوية؛ خنثوية المظهر (androgynie) الفاتنة. لكن الطرفين النقيضين معاً يسمحان ببلوغ حالة، التخنث التام، بما هي حالة الأفراد الذين يأتون في منطقة وسطى بين الجنسين، فلا هم ذكور ولا هم إناث، ولا يمكن أن يصنّفوا داخل أي من الجنسين ومن ثمّ يكونون غير صالحين للتناسل والتوالد. ولكي تنجح عملية التوازن هذه أو قل عملية التحييد بين فرديتين (لكي ينجح كلّ فرد في جعل فرد آخر محايداً)، من الضروري أن توافق درجة الجنسانية الذكرية المحددة لأحدهما بدقة تلك الدرجة الأخرى المحددة لجنسانية الآخر الأنثوية. وبذلك، يمكن تحقيق الموازنة بين الطبيعة الخاصة بكلّ منهما. وبناء عليه؛ لن يرغب الرجل الفحل مكتمل الرجولة إلا في المرأة كاملة الأنوثة،

---

(1) حرفيا: المرأة ـ الرجل.

والعكس بالعكس صحيح؛ فكلّ فرد يتوقف بحثه على الفرد الذي يطابقه تمام التطابق في القوة أو الفحولة الجنسية. إذ إنّ الغريزة عركت الأفراد حدساً بمدى تناسب العلاقة بينهما، وهذا الإحساس أو الحدس المشفوع بالبواعث والاعتبارات النسبية الأخرى، هو ما ينتصب كأساس الدرجات العليا لحالة الحب (لواعج الهوى). فلما يتجاذب اثنان من العشّاق أطراف الحديث بكلمات وألفاظ وجدانية تحرّك العواطف وتهيج الوجد، وتعبّر عن تآخي روحيهما، وتآلفهما المتناغم؛ فإنّ جوهر هذا التآخي وذلك التآلف المتناغم، لا يعدو أن يكون في نهاية المطاف، كما سبق وبينا، غير هذا التوافق المتبادل بين طبيعتيهما لتأمين كمال الكائن الذي سيولد؛ ومن البديهي القول إنّ لهذا التوافق المتبادل أهمية أكبر بما لا يقاس من ذاك التناغم والتآلف الروحي، الذي هذا مآله، غالباً ما يلبث أن ينحلّ بعد الزواج بزهاء قليل إلى ذات بين وشقاق صارخ.

نأتي الآن إلى الحديث عن الدوافع والبواعث والاعتبارات النسبية الأخيرة، المؤسسة على هذا النزوع المتجذر في كلّ فرد من الأفراد إلى البحث في الآخر عن عوض وبدل من مواطن ضعفه الخاصة، ونقائصه وعيوبه، وانحرافاته عن نموذج النوع، حتى لا يستمر وجودها في الطفل الذي سيولد وكي لا تتطور في

الجيل الجديد، فتستحيل عندئذٍ انحرافات واختلالات فادحة. فكلما كان الرجل ضامر العضلات خائر القوى، كلما زادت رغبته في امرأة عضلة شديدة العزم قوية الهمة، والعكس صحيح. وكما جرت به مقادير العادة، فبسبب طبيعتهن، تأتي النساء في أدنى السلم فيما يخص القوة العضلية، كذلك أرادت الطبيعة بأن يضعن اختيارهن ويفضلن الرجال الأشدّاء أوفياء الذراعين وذوي البأس. والقامة أيضا هي من الاعتبارات المهمة: فالرجال من قصار القامة ميّالون بشكل لافت إلى النساء فارعات الطول، والعكس بالعكس، ولشد افتتان الرجل القصير القامة بخطب ود النساء الطويلات وولوعه بهن يذهل عن كونه كان فيما فات ابناً لأب طويل القامة وأنّه ما كان ليلبث قزماً، إلا بسبب تأثير الأم وحدها، لأنّه قد ورث عن أبيه قلباً (أو الجهاز الوعائي) بطاقة من شأنها أن تغذي بالدم جسماً ضخماً، لكن هيهات، فأبوه وجده، من قبله، كانا قصيرين في الأصل، وبالتالي سيكون الإحساس بهذه الأثرة أو النزوع إلى مثل تلك النساء أقل. إنّ النفور الشديد أو الاشمئزاز المروّع الذي تحسّه المرأة طويلة الجسم حيال الرجال الماردين مصدرهما، في الأصل، رغبة الطبيعة عن خلق عرق بشري من الماردين العمالقة، إن كانت القوى التي يمكن لهذه المرأة أن تورثها إياه غير كافية لتؤمن له حياة مديدة. لكن إن وقع اختيار امرأة في المقابل على زوج سرياح فارع الطول،

ربما كي لا تبدو أضحوكة في عين العالمين، فإنّ ذريتها في أغلب الظن ستدفع الثمن غالياً لمثل هذه الحماقة. وهناك اعتبار آخر حاسم للغاية؛ هو لون البشرة أو السحنة. فالأفراد الشقر يبحثون دائماً عن الأفراد السود أو السمر، لكن نادراً ما يحدث العكس. السبب في ذلك هو أنّ ضفيرة الشعر الأشقر والعيون الزرقاء هي ابتداءً تنويعة، وتكادان تكونان انحرافاً عن نموذج النوع على غرار الفئران البيضاء، أو أقله الخيول البيضاء؛ ولا تكاد تنتمي هذه التنويعة إلى أي جهة من جهات الأرض أو صقع من أصقاع العالم، أو حتى إلى المناطق القطبية، وإنّما إلى أوروبا استثناء، والظاهر أنها تأتي من أصل اسكندنافي. فليسمح لي بأن أقول بصورة عابرة (en passant)[1]، بأنني على قناعة لا تحور بأنّ لون البشرة الأبيض ليس لون البشرة الطبيعي في الإنسان، ولكن كان عليه أن يكون ذا بشرة سوداء أو سمراء على مثال أسلافه الأوائل من الهنود؛ فلا رجل أبيض قد خرج في الأصل من رحم الطبيعة، ومن ثمّ فلا وجود لأي عرق أبيض[2]، حتى إن تكرر قول ذلك،

---

(1) يوردها شوبنهاور بالفرنسية في النص الأصلي (المترجم).

(2) هذه الملاحظة، وإن مر عليها شوبنهاور مرور الكرام، إلا أنها مهمّة لسببين اثنين؛ أولاً: لأنها دحض مسبق لأي محاولة ترنو إلى بلورة بيولوجيا أعراق على غرار محاولة النازيين، إذ النموذج الأصلي مشترك، والإنسانية الحديثة ما هي إلا تنويعة لذلك النموذج. وثانياً، فهذا النص يبين أن شوبنهاور، وحتى إن كان يرفض آراء لامارك وداروين، فهو مضطر إلى قبول شكل أدنى من أشكال المذهب التحولي المرتبط بالظروف البيئية والجغرافية. (المترجم).

بل إنّ كلّ رجل أبيض هو رجل قد صار أبيض (غير ملون). فلما نزح نحو الشمال الغريب عنه، وحيث كان عليه أن يعيش مثل النباتات الغريبة الدخيلة، لأنّه وإياها كانا في أمس الحاجة إلى الدفء، في فصل الشتاء البارد؛ لذا غدا الإنسان، على مر الزمن والقرون، أبيض السحنة. فالغجريون، وهم عرق هندي هاجر منذ حوالي أربعة قرون فحسب، دليل حي وشاهد على مرور لون البشرة من الهنود إلى الأوروبيين. ولهذا السبب تسعى الطبيعة بكلّ جهدها في الحب الجنسي، من أجل العودة إلى الشعر الداكن والعيون ذات اللون البني؛ لأنّهما من النموذج البدائي الأصلي، ومع ذلك فقد أصبح لون البشرة الأبيض طبيعة ثانية، لكن ليس إلى الحد الذي تبدو لنا فيه سحنة الهنود السمراء منفرة وبغيضة. وأخيراً، فكلّ إنسان يبحث في كلّ جارحة وكلّ جزء من جسم الآخر عمّا يصوب ويقوم عيوبه ونقائصه وانحرافاته الخاصة، وذلك بقدر من العناية والتصميم يوازي قدر وأهمية ذلك الجزء المعيب من الجسم. فالأفراد من ذوي الأنوف العقفاء أو القنواء، ووجوه الببغاوات، سيبثّون في نفوس الأشخاص ذوي الأنف الأفطس لذة ومتعة لا توصفان؛ والأمر نفسه يسري على كلّ جارحة من جوارح البدن. إنّ الرجال الذين رزأوا بأجسام وأطراف نحيفة هيفاء وطويلة سيبهجون أيما بهجة بجسم قصير بدين مكتنز ومتكوّم على نفسه. إنّ المعايير ذات الصلة بالمزاج

لها تأثير مماثل أيضاً على اختيار الرجل؛ فما من امرئ لا يشده ويستميله المزاج أو الطبع النقيض لمزاجه، أو طبعه الذي رَكبَ عليه، ولكن بقدر يكون فيه طبعه هو أبرز بوضوح كافٍ. إنّ الرجل الذي لامس الكمال والمثالية، على نحو من الأنحاء، لن يبحث ولن يحب أن يرى عيباً أو شيناً في الفرد الآخر بمقتضى ما فيه من الكمال، ولكنه يغمض العين على ذلك العيب وتلك النقيصة ويمر عليهما مرور الكرام أكثر من أي رجل آخر، لأنّه كفيل بأن يبسط على أطفاله جناح حمايته من علة من ذلك القبيل. وخذ مثلاً رجلاً أفقع ذا بشرة ناصعة البياض لن ينفره مشهد سحنة ضارب إلى الصفرة، لكن رجلاً سحنته صفراء سيجد وجهاً لونه أبيض ناصعاً جميلاً حد الكمال. وإن كان ذلك لا يقع إلا في الندرة النادرة من الحالات، فقد تعثر على رجل خبله عشق امرأة قبيحة الصورة جهمة الوجه، وإن صادف ووجدت حالة كهذه فبسبب من التوافق والتناغم الدقيق، الذي سبق وذكرناه أعلاه، بين درجتي الجنسانية التي تميزهما، أي حينما تكون كلّ انحرافات وعيوب المرأة متعارضة مباشرة مع انحرافات وعيوب الرجل؛ أي من حيث هي بمثابة المصوب والمقوم بالنسبة إليه. وفي هذه الحالة، تبلغ صبوة الحب في العادة ذرى سامقة.

إنّ الجدية البالغة التي نقلّب بها كلّ تفصيلة وكلّ جارحة من

قوام المرأة، والعكس صحيح؛ وكذلك فنظرة الارتياب التي نحدج بها امرأة بدأت تثير في نفسنا الإعجاب، وإلحافنا وإصرارنا على اختيارنا، وإسفاف النظر وتفرّس الخطيب في أسارير زوجته الموعودة، وتوخيه الحذر كي لا يذهل عن صغيرة أو كبيرة أو يخطئ في أي تفصيل من التفاصيل، ناهيك عن الأهمية الكبيرة التي يعلّقها على عجر وبجر الأجزاء الأساسية. كلّ هذا، إذن، في علاقة وثيقة مع أهمية الهدف أو الغاية. ذلك أنّ الطفل الذي لا بد وأن يولد سيحمل في جيناته تلك السمات طوال حياته. فعلى سبيل المثال، إذا كانت امرأة متقوسة الظهر ولو قليلاً، فمن الممكن أن يولد طفلها أحدب بشكل كامل، والأمر نفسه ينطبق على باقي الأعضاء الأخرى. وبطبيعة الحال فنحن لا نكون على وعي بكلّ هذا، بل على العكس من ذلك، فكل رجلّ يخيل إليه أنّه لم يعمد إلى هذا الاختيار الشاق إلا لمصلحة سعادته الخاصة (التي هي في الواقع، لا علاقة لها بذلك إطلاقاً)؛ إنّ اختياره يتماشى مع فرديته الخاصة، لكنّ لا بدّ أن نسلّم بأنّه لمصلحة النوع أولاً وأخيراً، الذي يعمل بدوره بسرية تامة ليحافظ، ما أمكن، على نموذجه بكلّ نقاوته.

وفي هذه الحالة، يتصرّف الفرد، دون أن يعي ذلك، لحساب النوع؛ أي لمصلحة شيء أعلى منه. ومن هنا تنبع الأهمية التي

يوليها للأشياء التي من الأخلق به ألا يحفل بها ولا يكترث لها. ثمة شيء ما في غاية الفرادة في الجدية المتحكمة واللاواعية التي تدفع شابين من جنسين مختلفين، في أول لقاء، إلى أن يرصدا ويتفرّسا بعضهما بنظرة مرتابة ونفّاذة، لا تفوتها شاردة ولا واردة، وما هذا التمحيص وذلك التقليب الدقيق غير تأمّل وتفكّر في عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) في الفرد الذي تُحتمل ولادته من صلب الأبوين، ونظرة في توليفة صفاته وميزاته الممكنة. إنّ نتيجة هذا التأمّل الذي به تتحدّد قوة الانجذاب والشوق والرغبات المتبادلة بينهما، وبعد أن يبلغ مرقى عالياً، قد تكون انطفاء جذوة هذا التشوق أو الاستلطاف على الفور، وذلك في إثر اكتشاف جزئية معينة أو ميزة ما، كانت مستترة لم يفطن إليها أحد. وعلى هذا النحو تجري الأمور؛ ففي كلّ مرة يظهر فيها من يستطيع الزواج وتتوفر فيه شروط الاستطاعة على الإنجاب، تتروى عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) وتمعن التفكر في الجيل الذي سيأتي لاحقاً، وطبيعة هذا الجيل. وهذا أعظم عمل كرّس له كيوبيد ملء قوته ونشاطه، واستغرق فيه كلّ نظره وأنفد كلّ تأمله. ولشد ما أنّ شؤون الفرد، في مجملها، مبتذلة ووقتية وتافهة للغاية، لكنها غير ذات بال، إذا ما قورنت بهذه الألوهية السامية التي تتعلق بالنوع والأجيال القادمة؛ لذلك فعبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) على استعداد دائم

للتضحية بالفرد ودون أن تهتم لأمره. ذلك أنّ مَثل عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) أمام الأفراد هو كمَثل الأبدي الخالد، إذا ما وضع مقابل الفاني البائد. وإن ما ترنو إليه (عبقرية الجنس) من مصالح قياساً بمنتهى غاياتهم (الأفراد) لهو أمر أشبه بوضع اللامتناهي والمتناهي في كفة واحدة. وبذلك، فهي وانطلاقاً من وعيها بأنّها تسعى وراء مآرب وأغراض أعلى شأواً من سعادة أو شقاء أولئك الأفراد البسطاء، فإنّها تقفو أثر ما تبغي تحقيقه ببرود مهيب ولا مبالاة فريدة غريبة، سواء أكان ذلك في قلب معمعة الحرب وصخبها، أو في حومة الحياة واضطراباتها أو تفشي طاعون، أو حتى في عزلة بِيَع الرهبان.

لقد رأينا ممّا سبق، أنّ حمية العشق وشدة التعلق تزدادان طرداً مع تفردهما، وذلك حين بيّنا كيف يمكن لفردين حسني التقطيع، يرومان تشكيل نوع الجنس في أحسن حلية وأكمل تكوين، أن يكون أحدهما بالنسبة إلى الآخر المكمل الفريد والمثالي؛ وهذا ما يفسر التجاذب الحصري في رغبتهما ببعضهما. وفي هذه الحالة، تنشأ عاطفة قوية، لا تتركز لهذا السبب بالذات سوى على موضوع واحد، تبدو كما لو أنّها في الخدمة الخاصة للنوع ما يلبسها طابع النبل والسمو. ومن ناحية أخرى، فالدافع الجنسي البدائي البسيط مشترك وأساسي، بالنظر إلى أنّه يحمل على كلّ موضوع، وعلى

الجميع من دون تفريد، ويسعى جاهداً ليحافظ على النوع من جهة الكم، لا بمقتضى الكيف. ولكن التفريد، والشغف الشديد، يمكن أن يبلغا درجة فائقة من السمو، إن لم يُشبَعا، بجميع خيرات ومباهج العالم، أو حتى بالحياة نفسها، فلن يكون لكلّ هذا طعم ولا قيمة. ويبلغ عنفوان الرغبة التي يولدانها غلواء أقوى من كلّ انفعال آخر، ما يجعل الإنسان مستعداً لكلّ ألوان التضحيات، ويمكن أن يقوده، في حال خاب أي أمل في التحقق بشكل قطعي، إلى الجنون المطبق أو الانتحار حتى. وبعيداً عن الاعتبارات والبواعث المذكورة أعلاه، فكلّ عاطفة متأججة تتملّك الفؤاد لا بد وأن ترتكز كذلك على اعتبارات ودوافع أخرى لا واعية، لكن لا نعيرها انتباهنا لأول وهلة. لذلك من الواجب علينا أن نُسلّم بأن ليس ثمة فقط تناغماً في الصفات الفيزيائية، لكن أيضاً بوجود توافق خاص بين إرادة الرجل وعقل المرأة، بفضله أمكن لفردٍ معين، أملت عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) وجوده، أن يولد من صلبيهما وحدهما لأسباب مستقرة في ماهية الشيء لذاته، التي لا يسع عقلنا أن ينفذ إليها، أو إذا رمنا الحديث على نحو أكثر دقة، لقلنا إنّ إرادة الحياة تمنّي النفس هنا بأن تغدو موضوعية (أن تتموضع) في فرد محدد الصفات بدقة، الذي لا يمكن إنجابه إلا من صلب هذا الأب ولا يصور إلا في رحم تلك الأم. إنّ هذا التوق الميتافيزيقي للإرادة في ذاتها ليس له من دائرة

عمل في سلسلة الكائنات إلا قلوب الآباء المستقبليين: فعندما تستبد عاطفة ملتهبة بسواد قلبيهما، يخيل إليهما أنّ ما يرغبانه بملء إرادتهما هو في الزمن الحاضر، ليس إلا غاية ميتافيزيقية محض؛ أي يأتي خارج نطاق الأشياء الموجودة واقعياً. وبعبارة أخرى، فهذا الدافع الغريزي الذي يخضع إليه كلّ كائن منذ نشأته، ويحمل إلى الوجود فرداً منذوراً للوجود لاحقاً، هو الذي (أي الدافع الغريزي)، يتمظهر في العالم الظاهري من خلال هذه العاطفة المشبوبة، وغير الآبهة بأي موضوع غريب عنها، التي قد تدبّ في دخائل أحد الطرفين من الآباء المستقبليين. وفي الواقع، فالحب ليس إلا وهماً لا مثيل له، فهو يزرع في المحب استعداداً لأن يترك كلّ متع ومسرات الحياة لينام بجوار هذه المرأة، التي لن تسرّه بمتعة أكثر ممّا ستجود به أخرى. وفي طبيعة الحال، فإلى هذه النهاية يختزل كلّ شيء في المطاف الأخير، والدليل على ذلك أنّ هذا الشغف المتقد، شأنه شأن كلّ العواطف والانفعالات والأهواء الأخرى، ينطفئ بالمتعة (Genuss)، أمام صدمة وذهول المحبين. وتستحيل جذوة ذلك الشغف رماداً أيضاً في إثر تبيّن عقم المرأة (وفقا لهوفلاند، يمكن أن يكون لذلك تسعة عشر سبباً عارضاً صادراً عن عيوب خلقية أو تكوينية)، لا يمكن تحقق الغاية الحقيقية الميتافيزيقية، تماماً كما هو الحال حين تسحق كلّ يوم ملايين البذرات وتخنق ملايين الأجنة، التي يثوي فيها نفس

مبدأ الحياة الميتافيزيقي الناشد للوجود. وعزاء الإنسان الوحيد في ذلك هو الفكرة الوحيدة بأنّ إرادة الحياة تجد أمامها ما لا نهاية من الأمكنة، والأزمنة، ومن المادة ومن ثمّ ما لا حصر له من المناسبات والفرص لتعاود الظهور والتجلّي.

على الرغم من أنّ ثيوفراستوس باراسيلسوس[1] لم يتعرّض لهذا الموضوع من قبل، حتى إن كان مسار فكره وطريقته في النظر إلى الأشياء غريبة بما لا يقاس عن مسار فكري وطريقتي في النظر، فلربما طرق فكره وعرض له، ولو بطريقة سطحية خاطفة، عندما تلفّظ بهذه الكلمات العجيبات الآتية، التي كتبت في سياق آخر تماماً وبأسلوبه المعتاد في القفز من موضوع إلى آخر وفي إطلاق الكلام على عواهنه: «هؤلاء هم الذين ألف اللّه بين قلوبهم، مثل تلك التي استخلصها أوريا[2] وداود من بعده؛ وإن كان هذا الاتحاد أو القران (حسب اعتقاد العقل البشري)

(1) ولد سنة 1493 وتوفي سنة 1541 بسويسرا، طبيب وفيلسوف ولاهوتي سويسري. وهو من ماهدي التحول الكبير الذي عرفته النهضة من الطب الغالينوسي والأرسطوطاليسي إلى الطب الحديث المبني على أسس بيوكيميائية. (م).

(2) أوريا الحثي كان قائدا في جيش الملك داود وقد حدث أن اتصل الملك داود ببتشبع زوجة أوريا، الذي كان غائبا في غزاة بالبلقاء، فكتب داود إلى أمير تلك الغزاة: أن ابعث أوريا إلى موضع كذا، وقدمه قبل التابوت، وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح اللّه عليه، أو يقتل. فبعثه وقدمه ففتح على يديه. فبعثه ثانية وثالثة حتى قتل. فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود، وهي أم سليمان. (م).

متناقضاً تمام التناقض مع زيجة منصفة ومشروعة... لكن بسبب سليمان، الذي لا يمكن أن يولد من أصلاب أبوين آخرين غير بشبع[1] وداود، وإن كانا زانيين، فاللّه قد ألف بين قلبيهما»[2] (كتاب الحياة المديدة، الجزء الأول، 5).

إنّ لوعة الحب، الإيروس (ἵμερος)، التي لم يتوقف الشعراء في كلّ الأزمنة والعصور عن تصويرها في أبعادها التي لا عد لها ولا حصر، لكن دون أن يستنفدوا الموضوع أو يوفوه كلّ حقه؛ فهذا الشوق الحرون الذي يجعلنا نتوهم أنّنا بامتلاك امرأة ما ستغمرنا الحياة بنشوة سعادة فياضة لا حدود لها، وفي حال العكس؛ أي في حال فقدها سنكتوي بألم ونذوق عذاباً يفوق كلّ وصف، هذا الشوق الحرون وتلك اللوعة اللاذعة التي تفطر قلب عاشق، ليس منبعهما حاجات فرد فان منذور إلى زوال؛ إنّما هي على العكس من ذلك، تنهدات وزفرات روح النوع، حين يفلح في انتهاز فرصة وحيدة لتحقيق مخططاته وغاياته، أو أنينه وتأوهه العميق في حال فشل في اغتنام تلك الفرصة. إنّ

---

(1) والدة النبي سليمان (المترجم).

(2) «Hi sunt, quos Deus copulavit, ut eam, quae fuit Urioe et David; quamvis ex diametro (sic enim sibi humana mens persuadebat) cum justo et legitimo matrimonio pugnaret hoc..., sed propter Salomonem, qui aliunde nasci non potuit, nisi ex Bathseba, conjuncto David semine, quamvis meretrice, conjunxit eos Deus. » (De vita longa, I, 5.).

النوع وحده يتمتّع بحياة أبدية، وهو بالتبعة وحده المقتدر على أمنيات ورغائب أبدية، والجدير بإشباع وإبهاج أبدي، والجلود الصابر على آلام وأوصاب أبدية. ولكن هنا كلّ هذه الإحساسات تبقى حبيسة في قلب كائن فان؛ لذلك ليس مستغرباً إن بدا ذلك القلب كما لو أنّه يهدد بالانفجار ولا يجد من وسيلة ليعبّر عن هذا التلهف إلى لذة ومتعة حسية لا تنضب أو لشقاء لا نهائي يتملّك روحه. ومن هنا إذن، يأتي منبع كلّ الشعر الأيروتيكي (الغزلي أو الشهواني) من الجنس الأرقى، الذي بسبب موضوعه، يسرح خياله بطيب خاطر بعيداً إلى هذه الاستعارات المتعالية التي تحلّق فوق الأشياء الأرضية. ذلك كان موضوع بيترارك ومادة اشتغال سان ـ برو Saint[1] ـ Preux، وفيرتر[2] وجاك أورتيس[3] الذين من دونه، لم يكونوا ليفهموا، ولا ليشرحوا، فيما بعد. فهذه القيمة الاعتبارية اللامحدودة التي نسبغها على المرأة المحبوبة لا يمكن أن ترتكز على أي ضرب من الميزات الفكرية، ولا على كفاءة وجدارة موضوعية وواقعية بصفة عامّة؛ لسبب بسيط يتمثّل في

---

(1) بطل رواية مانون ليسكو للخوري الفرنسي أنطوان فرانسوا بريفو الصادرة سنة 1731. (المترجم).

(2) بطل رواية آلام الشاب فيرتر لغوته وصدرت الرواية في خريف سنة 1774. (المترجم).

(3) أو الرسائل الأخيرة لجاكوبو أورتيس، وهي رواية رسائلية ألفها الشاعر الإيطالي نيكولو أوغو فوسكولو سنة 1802. (المترجم).

كون حبيبها لا يعرفها خير المعرفة ولا بصورة كافية غالباً، وهذه كانت حالة [المسكين] بيترارك.

فوحدها عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) القادرة على أن تخمن وتحدس في لمح البصر أية قيمة تستحق العناء، وذلك من أجل أن تحقق غاياتها. كذلك، ولتكن هذه قاعدة لا غرابة أو شذوذ فيها، فالعواطف الكبرى من لواعج الهوى وصنوف الهيام، غالباً ما تصيب سويداء القلوب وتولد من النظرة الأولى.

«هل يحب حقاً، من لا يحب من أول نظرة؟

Who ever loved, that loved not at first sight?"[1]

وإنّها لصدفة غريبة أن نجد مقطعاً لافتاً للانتباه عن هذا الموضوع في رواية كانت ذائعة الصيت، قد مضى على تأليفها مئتان وخمسون عاماً، وهي بعنوان غوزمان دي الفاراش Guzman d'Alfarache (للكاتب الإسباني ماتيو أليمان Mateo Aleman) يقول فيه: «فلكي يحب الرجل، لن يكون محتاجاً إلى الانتظار ردحاً طويلاً من الزمن، ولا إلى التأمّل ملياً لاتخاذ قراره في النهاية، لكن يكفي فقط، أن نلمس لأول وهلة، لأول وآخر نظرة،

(1) شكسبير، مسرحية كما تحبها، الفصل الثالث، المشهد 5.

تطابقاً وتوافقاً بين كلا الطرفين، أو ما جرت العادة أن نطلق عليه في الحياة العامة تشابه الدماء (تجري في عروقنا الدماء نفسها)، والراجع بدوره إلى تأثير خاص للنجوم»[1] .وأيضاً بالنسبة إلى عاشق هائم، فإنّ فقدان محبوبته، التي قد سلبها منه غريم منافس أو غيّبها الموت، هو عذاب أمض وأضنى من كلّ العذابات؛ لأنه من طبيعة متعالية، كما أنّه ينوبه بنوائبه ليس بحسبانه فرداً فحسب، وإنّما في ماهيته وجوهره الأبدي (essentia aeterna) كذلك، في حياة النوع، التي تستدعى هنا إرادته الخاصة وتلتمس خدماته لأجل أن يتدخل. وذلك يا سادتي؛ ما يفسر لمَ تبلغ الغيرة ما تبلغ من القسوة والمأساوية والفظاعة والمرارة، وذلك أيضاً ما يفسر لمَ كلّ هجر وجفو وصد وفراق في الحب؛ هو في عين ومهجة المحبين أفدح وآلم أنواع التضحيات. فالبطل يخجل من أن تتناهى آنّاته وصرخة تفجعه وشكواه إلى الآخرين، إلا ما قد يصيب قلبه بسبب الحب؛ إذ لم يعد هو من يطلق صرخات التوجع واللوعة،

---

(1) (القسم الثاني، الكتاب الثالث، الفصل الخامس).

ملاحظة: هذا نص المقطع بلغته الإسبانية كما هو موضوع في متن كتاب شوبنهور: «No es necessario para que uno ame, que pase distancia de tiempo, que siga discurso, in haga eleccion, sino que con aquella primera y sola vista, concurran juntamente cierta correspondencia ó consonancia, ó lo que acá solemos vulgarmente decir, una confrontacion de sangre, à que por particular influxo suelen mover las estrellas.»

إنّما النوع ذاته. في مسرحية زنوبيا العظيمة (للشاعر والمؤلف المسرحي الإسباني كالديرون)، ثمة مشهد في الفصل الثاني يجمع كلاً من زنوبيا وديسيوس يقول فيه هذا الأخير:

يا أيتها السماء! أتحبينني إذن؟

تمجيداً لك سأتنازل عن مئة ألف انتصار،
لأعود... إلخ.

Cielos, luego tu me quieres ?

Perdiera cien mil victorias,

Volviérame, etc...

وفي حالتنا هذه فإنّ الشرف، الذي كان له إلى تلك اللحظة أن يفوق أهمية أية مصلحة أخرى، سيُنحّى ويستبعد جانباً بمجرد دخول الحب الجنسي أو مصلحة النوع أيّ رهان يكون لها عين على امتياز مضمون، لأنّ مصلحة النوع تتجاوز بما لا يقاس وبما لا حدود له مصالح الأفراد البسطاء، مهما كانت أهميتها. إنّ الشرف والواجب والوفاء، تنتهي إلى أن تنقاد وتذعن وتركع أمامها، فيما صمدت طويلاً في وجه كلّ محاولات الغواية والوسوسة والاستهواء والإغراء بل حتى وخطر الموت إن تهددها. ولكَم نرى في الحياة الخاصة، مثلاً، كيف يغدو ضمير الرجل أكثر تساهلاً وإغضاءً حين يقع في الحب منه في أي ظرف

آخر، ويحدث أحياناً أن يترك أناس صادقون ومخلصون أصفياء ومستقيمون، ضميرهم جانباً في مثل تلك الحالات، ويرتكبون الزنى فلا يندى لهم جبين، ما إن يأخذ الحب بمجامع قلبهم، بمعنى آخر كلما تملكتهم مصلحة النوع. إنّهم يبدون كما لو أنّهم واعون بحق أعلى من ذلك الذي تمنحه المصالح الفردية؛ وهذا عائد ببساطة إلى كونهم يتصرفون من أجل مصلحة النوع. وفي هذا الصدد قال شانفور Chamfort[1] كلاماً لافتاً للنظر: «عندما يهيم رجل بحب امرأة فتستوقد حُمَيًّا الشغف جوانبه، فمهما حال بينهما من العقبات والحوائل، كالزوج أو الأبوين أو غير ذلك، فالحبيبان قد خلقا لبعضهما، وبفضل الطبيعة، قد تحررا من الحق الإلهي، رغم قيود القوانين وعقال الأعراف والمواضعات التي تواطأ عليها بنو الإنسان».[2]

وإذا ما ثار أحد حنقاً أو تحاملاً، فما علي إلا أن أذكره بالعفو والتسامح الحليم الذي تعامل به المخلِّص (المسيح) في الإنجيل مع المرأة الزانية، برميه كلّ من كان حاضراً بنفس

---

(1) سيباستيان ـ روش نيكولا دي شانفور (1741 ـ 1794): أخلاقي فرنسي ذائع الصيت، اشتهر بعد موته بالحكم والخواطر والطبائع والنوادر (1795) التي ندد من خلالها بروح عصره. كان متشيعا للثورة الفرنسية وسجن بسبب ذلك مرات قبل أن ينتحر. (المترجم).

(2) يقتبس شوبنهاور المقطع بالفرنسية من «Maximes, pensées, caractères et anec-dotes» ـ حكم وخواطر وطبائع ونوادر ـ لشانفور. (المترجم).

الخطيئة. من وجهة النظر هاته، فالشطر الأكبر من الديكاميرون (Decameron)[1] يظهر كما لو أنّه سخرية مهينة لعبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) التي تتفّه وتزدري حقوق ومصالح الأفراد. بئساً، فلينسحقوا تحت الأقدام. وبنفس اللامبالاة والتجاهل، تستبعد عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) اللامساواة في المكانة الاجتماعية وجميع العلاقات المتشابهة، حين تحبط ارتباط عاشقين متيمين بحب بعضهما؛ إنّها (العبقرية) لا تأبه بأحد ولا تحفل بشيء، وتواصل تعقب أهدافها وغاياتها عبر أجيال متلاحقة لا حصر لها، فهي تذري وتبدد بنفثة واحدة، كلّ ما بناه الإنسان من مبادئ وزواجر أخلاقية، وكأنّها قشة في مهب الريح. ولذات السبب، ترى رجلاً يجسر بملء إرادته بكلّ خطر محدق بجرأة وإقدام، ولو كان رعديداً جباناً. يا لبهجتنا ومتعة أعيننا ونحن نرى سواء في مسرحية أو رواية، كيف يدافع عاشقان يافعان عن حبهما ـ أي في سبيل مصلحة النوع ـ وكيف ينتصران على العجائز الذين لا يفكرون سوى في خير وهناء الأفراد. ذلك أنّ كفاح زوج من العشاق ونضالهما يبدو لنا على قدر أكبر من الأهمية، وأبهج للنفس، ومقبولاً أيضاً أكثر من غيره، وذلك مثل أنّ النوع أكثر

---

(1) أو كتاب الأيام العشرة؛ وهي مجموعة من مئة قصة قصيرة ألفها جيوفاني بوكاتشيو ما بين 1349 و1353 (المترجم).

أهمية واستحقاقاً للاعتبار من الفرد. وهذا ما يفسر لماذا يبقى الموضوع الرئيس للكوميديا، تقريباً، هو تدخل عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) بأهدافها ومشاريعها التي تتعارض مع المصالح الشخصية لأفرادٍ تهددهم بإحباط سعادتهم. وكقاعدة عامة، فإنّها عادة ما تفلح في مسعاها، وعلاج هذه العقدة، المطابق للعدالة الشعرية، يرضي المتفرج، لأنّ هذا الأخير يدرك جيداً أنّ غايات النوع ينبغي أن تتجاوز بأشواط غايات الأفراد. وما إن تنكشف حبكة المسرحية، تسلو نفسه ويترك المحبين الظافرين، وهو يشاطرهم الوهم بأنّهم قد بلغوا منتهى سعادتهم، في حين أنّهم، في واقع الأمر، قد بذلوا تلك السعادة من أجل رخاء وهناء النوع ضد إرادة الآباء المتبصرين وبعيدي النظر.

إنّ بعض الأعمال الكوميدية، القليلة نوعاً ما والشاذة عن النمط السائد، لا تنطبق عليها هذه القاعدة؛ إذ يبحث المؤلف عن قلب الأشياء رأساً على عقب، وعلى جعل الأفراد سعداء على حساب غايات النوع. غير أنّ المتفرج يستشعر الألم الذي ينتج عن عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) دون القدرة على مواساته من خلال الامتيازات التي تكفل للأفراد. ألفي أمثلة عن هذا الجنس من الملهاة في عملين مسرحيين معروفين على نطاق واسع: ملكة

الستة عشر عاماً وزواج العقل (Le mariage de la raison)[1]. ففي التراجيديات التي هي في الجوهر قصة حب، وجرياً على العادة، دائماً ما يهلك العاشقان معاً في النهاية؛ والسبب في ذلك أنّ نوايا ومقاصد النوع، الذي كان الحبيبان له بمثابة الوسائل والأدوات، غالباً ما تخيب. ولنضرب مثلاً على ذلك بروميو وجولييت، وتانكريد[2]، ودون كارلوس، وفالنشتاين، وعروس ميسينا (أو الإخوة الأعداء، شيللر)[3]، وفي أعمال أخرى أيضاً.

وغالباً ما تتمخض عن حب رجل لامرأة أخذت بمجامع قلبه آثار هزلية بقدر ما هي مأساوية. ذلك أنّ، في كلتا الحالتين، حين يكون مسكوناً بروح النوع ومهيمناً عليه، فهو لا يثوب إلى نفسه أبداً، ولا يعود مسلكه مطابقاً لمسلك الفرد قط. إنّ ما يضفي على أفكار رجل، بلغ منه العشق مبلغه، صبغة غاية في الشعرية والجلال، بله انعطافاً متعالياً فارغاً وفوق فيزيائي عن أفكار رجل، الأمر الذي قد يحيد به عن هدفه الشخصي المادي بكليته، إنّه يستوحي أفكاره من روح النوع، الذي له مصالح أقوى بما لا حدود له مقارنة بالأفراد البسطاء. إنّ له مهمة خاصة تتمثّل في

(1) «الملهاتان معا» من تأليف الكاتب المسرحي ومؤلف الأغاني الفرنسي يوجين سكرايب (1791 ـ 1861). (المترجم).

(2) تراجيديا لفولتير. (المترجم).

(3) ثلاثة أعمال لشيللر. (المترجم).

تأمين وجود أخلاف وأعقاب لا تنتهي، تلك التي سيكون أفرادها على جبلة محددة بحيث لن يكون بإمكانهم أن ينالوا الكينونة، إلا من نفسه كأب ومن محبوبته كأم، فمن دونهما سيكون من المحال على ذرية كتلك أن تكون موجودة، غير أنّ إرادة الحياة، في سعيها إلى أن تصبح واقعاً موضوعياً، تصرّ على ذلك بإلحاف وإلحاح شديدين. إنّنا على وعي وإدراك بأنّنا منكبّون هنا على مسألة ذات أهمية رفيعة وسامية تُحلّق بالمحبين إلى ذرى سامقة فوق الأشياء الأرضية، بل فوق أنفسهم؛ فالحب يضفي على رغباتهم الحسية المادية هالة فوق فيزيائية غير مادية، ليغدو الحب حتى في حياة الرجال الأكثر واقعية، فصلاً أو حلقة شعرية. وبعدئذ، يمكن للمسألة أن تنحو في بعض الأحيان منحى غاية في الهزلية. إنّ أمر الإرادة الساعية إلى أن تصير موضوعية في النوع لا يأتي إلى أذهان الرجل الهائم حباً، ولا يعيه إلا تحت قناع توقع نعمى وسعادة لا نهائيتين، يعتقد أنّه سيعانقهما بالنهاية عقب اتحاده بمحبوبته. ففي أعلى درجات الهوى والوجد، تومض هذه الفكرة الكاذبة والوهم الخادع وميضاً، فإذا تعذر تحقيقه، تفقد الحياة نفسها كلّ سحرها وبهجتها وتبدو في عينيه كئيبة تافهة، باهتة بلا لون ولا طعم، مضجرة مملة، إلى حد القرف والاشمئزاز ولدرجة تفرخ روعه فلا يتهيب أهوال الموت، بل هذا ما يدفع الرجل من حين إلى حين إلى التقصير من حبل عمره، وبمحض اختياره وإرادته.

وفي خضم هذه الظروف والملابسات، تجرجر إرادة الرجل لتلقيه في دوامة إرادة النوع، فتتلقفه أو لنقل إنّ هذه الأخيرة قد تفوقت وظهرت على الإرادة الفردية، لدرجة أنّه إذا أعيق رجل ما من أن يكون نافعاً للنوع، فهو يأنف ويترفّع عن العمل لحسابه الخاص. إنّ الفرد في حالة كهذه لهو أشبه بوعاء أوهن من أن يتحمّل صبوة هذا الشوق اللامتناهي لإرادة النوع المتركزة على موضوع بعينه. والانتحار، والحالة هذه، هو المنتهى والمآل. وقد ينتحر العاشقان معاً في وقت واحد، هذا ما لم تتدخل الطبيعة لتمنعه، لتوقعهما بعدئذٍ في غياهب الجنون، الذي يحول بحجابه السميك دون الوعي بهذه الحال الميؤوس منها. وأصدق الشواهد على هذه الحقيقة تثبتها سنوياً حالات مماثلة لا تعدّ ولا تحصى.

إنّ الحب غير المتبادل ليس وحده من ينقاد أحياناً إلى مثل هذه النهاية المأساوية؛ بل حتى الحب المتبادل ينتهي في أحيان كثيرة إلى التعاسة والشقاء عوض السعادة؛ لأنّ مقتضيات الوجد ومطالب الحب تكاد تتعارض دائماً وبقوة مع الهناء الشخصي للحبيب المعني الذي تزيده رهقاً، ولأنّ تلك المقتضيات لا تتوافق مع ظروفه الأخرى، فهي تنسف مخططات الحياة المبني على أساسها. أجل، حق القول إنّ الحب يكون على تعارض يتكرر مرات كثيرة ليس فقط مع الظروف الخارجية، ولكن أيضاً

مع الفردانية الخاصة نفسها، لأنّه قد ينقذف في صدر شخص يضيق به، وبصرف النظر عن العلاقات الجنسية، قد يصبح موضوع بغضاء، وامتهان وازدراء، بل مقت وبغض وكراهة في نفس العاشق المُبتلى. لكن بما أنّ إرادة النوع أقوى بكثير من إرادة الفرد، فالمحب يغض بصره عن كلّ الصفات المذمومة ممّا يناقض ذوقه، فيمر سريعاً على كلّ شيء، ولا يبدي رغبة في أن يعرف أي شيء، ليوحد نفسه إلى الأبد بمن شغفه حباً وهام بهواه. إنّه لكامل هذا العمى الناتج عن الوهم، الذي يتبدد فور ما تتحقق إرادة النوع، مخلفاً مكانه رفيقة حياة بغيضة؛ وهذا ما يفسر لماذا نرى الكثير من الرجال العقلاء الأريبين، يقترنون بتنانين وشياطين إنس (ينغصن عليهم حياتهم ويزدنها إرهاقاً)، ولم لا نستطيع أن نفهم كيف أمكنهم أن يوقفوا اختيارهم على مثل أولئك وكيف قرروا هذا. قد يكون ذلك هو الذي حدا بالقدماء إلى تصوير الحب (Amor) على أنّه أعمى. وفي واقع الأمر، يتفق أن يتعرف المحب بوضوح لا شائبة فيه على العيوب الفظيعة المستنكرة في استعداد وطبع عروسه ـ وهي عيوب تنذره بحياة البؤس والبرحاء ـ وقد يحدث أن يشعر بها بمرارة، وعلى الرغم من كلّ شيء فهو لا يسمح لشيء بأن يثبط عزيمته، ويدخل ذرة من الروع إلى قلبه.

أنا لا أتسولك، أنا لا آبه

إن علمت أنّ قلبك مذنب

أحبك، أعلم ذلك

كيفما كنت.

I ask not, I care not,

If guit's in thy heart;

I know that, I love thee,

Whatever thou art.

ذلك أنّه، في الحقيقة، لا يبحث عن مصلحته، ولكن مصلحة شخص ثالث، لم يخرج إلى حيز الوجود بعد، وإن كان يساوره انطباع وهمي بأنّه يتصرّف من أجل مصلحته الخاصة. لكن هذا السعي الدؤوب وراء مصلحة الغير، هو دائماً وفي كل حدب وصوب، علامة عظمة وسيماء سمو وشرف، يضفي على شغف الحب مسحةً جليلةً تجعله جديراً بأن يستهوي قريحة شاعر. وأخيراً، يمكن للرجل أن يحب ويكره محبوبته في الآن نفسه. وهو ما حدا بأفلاطون بتشبيه حب الرجل بحب ذئب لنعجة شاردة، وهو ذاته ما يقع حين يتيم عاشق بحب محبوبته، ورغم كلّ وكده واستجداءاته وتوسلاته، فلا يجد من يعيره أذناً صاغية.

«إنّي أحبها وأكرهها ـ I love and hate her[1]»

---

(1) (Shakespeare, Cymbeline, III, 5.)

فلما تستوقد نار كراهية المرأة المحبوبة في أحشاء الرجل، قد تجعله أحياناً يذهب حداً بعيداً، فيقتل محبوبته ثمّ ينتحر عقب ذلك. ففي كلّ سنة نتصفح على صفحات الجرائد بعض الأمثلة من هذا القبيل، فنتأمّل كم كان هذا البيت لغوته موفقاً وصارخاً بالحقيقة:

«بحق كلّ حبٍّ مرفوض! بحق العناصر الجهنمية!
آه لو أعرف أشنع وأسوأ من هذا، لألعنه!»[1]

وفي الحقيقة فليس من قبيل المبالغة، ولا المغالاة، حين يدعو عاشق برود وجفاء محبوبته، أو طربها بزهوها وابتهاجها بغرورها، الذي يتغذى على آلامه ويلتذ، بسادية، بلوعته، باسم القسوة. فلأنّه يكون واقعاً تحت تأثير دافع، شبيه بغريزة الحيوانات والهوام، يضطره رغم كلّ براهين وحجج العقل، إلى السعي وراء هدفه من دون قيد أو شرط، وإلى نبذ واطراح ما عداه من الأهداف؛ إنّه لا يستطيع أن يصرف النظر عنه ولا التفريط فيه. ليس ثمة من بيترارك وحيد، بل هناك العديد من نسخ بيترارك، هذا الأخير الذي حبط حبه وأخفق في تعويضه فكان لزاماً عليه أن يرسف طوال حياته

(1) (فاوست، الجزء الأول، المقطع 2805)
وإليكم عبارات غوته بلغتها الألمانية: «Bei aller verschmähten Liebe, beim höllichen Elemente! Ich wollt', ich wüsst' was ärger's, das ich fluchen könnte!»
(Faust, I, v. 2805 sq.)

في القيود، وينوء بما يرزح تحته من أثقال هذا الفشل العاطفي، ويطلق العنان لتنهداته في الغابات النائية؛ ولكن بيترارك الأوحد ذاك قد تمتع بالموهبة الشعرية دون سواه من العالمين، وهو الذي ينطبق عليه هذا البيت البديع لغوته[1]:

فحتى إن أخرس الألم الإنسان عن الكلام، فثمة
آلهة وهبتني القدرة على أن أرفع عقيرتي بعذابي.[2]

في واقع الأمر، إنّ عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع)، من كلّ حدب وصوب، تدق طبول حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر على العبقريات القرينة التي تحرس الأفراد؛ إنّها بمثابة المضطهد المطارد والعدو الذي يترصدهم ويتربص بهم الدوائر في كلّ مكان، وهي على تأهب واستعداد دائم لتنقضّ بلا هوادة على سعادة الأفراد الشخصية، من أجل أن تقرر وتفرض ما تصبو إليه من مرامٍ وأهداف؛ وأحياناً يبلغ بها الأمر حد التضحية بسعة عيش ورخاء أمة بكاملها على مذبح نزواتها. ويضرب لنا شكسبير

(1) (Torquato Tasso, V, 5)
توركواتو تاسو (بالألمانية Torquato Tasso): مسرحية كُتبت بواسطة الأديب الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته (1790) والعرض الأساسي لها في (1807). المسرحية تدور حول الشاعر الإيطالي توركواتو تاسو (1544 ـ 1595)، ألف غوته المسرحية في البداية في فايمار في (1780) ولكن معظم المسرحية كتبت أثناء رحلة غوته إلى إيطاليا بين (1786 و1788)، اكتملت المسرحية في (1790).

(2) النص الألماني الأصلي: «Und wenn der Mensch in seiner Quaal verstum- mt, Gab mir ein Gott, zu sagen, wie ich leide.» (المترجم).

مثلاً عن ذلك في مسرحية هنري السادس، وتحديداً في: الجزء الثالث، من الفصل الثالث، في المشهدين الثاني والثالث. وسبب كلّ هذا يتمثل في أنّ النوع، الذي تكمن فيه بذرة كياننا وجذر ماهيتنا، له علينا حق أقدم وأكثر مباشرة من الفرد؛ ومن هنا هذه الأولوية والأثرة التي نمنحها قضاء لشؤونه وأغراضه على حساب قضاء شؤوننا وأغراضنا. إنّ الإحساس بهذه الحقيقة دفع القدماء إلى تجسيد عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع) في كيوبيد، الذي على الرغم من هيأته الطفولية، فهو إله معادٍ وقاسٍ، ومن ثمّ فقد حظّ من قدره وأدين بوصفه الشيطان النزوي والطاغية المستبد، ومع ذلك كلّه، فقد كان سيد الآلهة والبشر:

وأنت، يا طاغية الآلهة والبشر، إيروس!

(Συ δ› ὦ θεων τυραννε κ› ἀνθρωπων, Ἐρως. (Tu, deorum hominumque tyranne, Amor!)[1])

سهام قاتلة، العمى والأجنحة، هذه هي صفاته. والصفات الأخيرة تدل على التحول والتقلب والتبدل، وهذا اللاثبات الذي لا يبدأ إلا مع الخذلان وخيبة الأمل، التي تأتي هي الأخرى عقب التملك وإشباع الرغبة.

---

(1) (يوريبيدس، أندروميدا)

ولأنّ الحب، مثلاً، يقوم على وهم ويصور في عيني الفرد ما فيه ميزة للنوع على أنّ فيه ميزة للفرد، فإنّه لا بدّ وأن ينقشع ضباب ذلك الوهم، حالما يبلغ النوع هدفه. إنّ روح النوع، التي تمسك بخناق الفرد وتستولي على كيانه، تحرره الآن مرة أخرى. وبعد أن تهجره روح النوع، يعود الفرد مرة أخرى إلى سيرته الأولى من الضيق والضنك، ويرى بعين الذهول والاندهاش كيف أنّ جهوده الحثيثة والبطولية واللامحدودة، لم تجلب من متعة غير ما يمنحه أي إشباع آخر للغريزة الجنسية؛ فخلافاً لتوقعاته، لا يأنس في نفسه سعادة أكثر ممّا كان يأنس من قبل. فيدرك أنّه كان الغر المخدوع الذي غررت به إرادة النوع. كذلك، وكقاعدة عامة، فكلّ ثيسيوس قرير العين بإشباع رغبته كان لا محالة سيهجر أريانته (Ariane)[1]. إذا رويت عاطفة بيترارك المشبوبة بماء الإشباع، فغناؤه كان سيصمت، كما تصمت العصافير عن الزقزقة بمجرد ما تبيض بيوضها على الأعشاش.

---

(1) ثيسيوس، أمير أثينا، ابن إيجيوس والبطل الذي سيخلص الأثينيين من شر المينوتور، الوحش المحتجز في متاهة صممها العبقري ديدالوس. أما أريان فهي ابنة ملك جزيرة كريت موطن المينوتور، وهي التي ستحرر ثيسيوس من المتاهة بعد أن شغفها حبا ووعدها بالزواج لكنه هجرها وقفل عائداً إلى موطنه. غير أن عاصفة بحرية ستعجل بموته في حين أن أريان المغبونة ستتزوج ديونيسيوس، إله الخمر الذي سيتخذ منها إلهة ملهمة للشعراء. (المترجم).

فلتسمحوا لي ها هنا، أن أسجل بصورة عابرة أنّه على الرغم من أنّ ميتافيزيقيا الحب لدي قد تثير بعض مشاعر الاستياء خاصة في صفوف الواقعين في شراك تلك العاطفة، لكن الحقيقة الأساسية التي كشفت عنها النقاب، أكثر من أي شيء آخر، وبافتراض أنّ اعتبارات العقل ستكون عموماً ذات أثر طيّب، ستتيح لهم إحكام السيطرة على شغفهم، والتغلب عليه على نحو فعال. لكننا سوف نتمسك بالمبدأ الهزلي القديم: «من لم يكن له في ذاته لا عقل ولا حسن تدبير، لا يمكن أن يكون ممسوساً من العقل».

«Quae res in se neque consilium, neque modum habet ullum, eam consilio regere non potes».[1]

إنّنا نعقد زيجات الحب من أجل مصلحة النوع، وليس من أجل مصلحة الأفراد. ليس ثمة من شك أنّ الأشخاص المعنيين يتوهمون أنّهم يسعون وراء سعادتهم الخاصة، لكن هدفهم الحقيقي هو، في واقع الأمر، غريب عنهم، ويقوم على إنجاب فرد يجد من خلالهم شرط وجوده، ويستحيل أن يوجد إلا بواسطتهم. يجعلهم هذا الهدف قريبين من بعضهم، ويكون الواجب الأكثر إلحاحاً عليهم أن يفكروا عندئذٍ في أمثل الوسائل لينسجموا

(1) (Térence, L'eunuque, v. 57 sq)

فيما بينهم. ولكن على الأغلب، سيكون الزواج المؤلف في إثر هذا الوهم الغريزي الذي هو جوهر الحب المحموم، قياساً ببقية الزيجات، من طبيعة متنافرة وغير متجانسة تماماً. وينفجر هذا النشاز والتنافر علانية حالما يتبدد الوهم، وهو أمر محتوم لا مفر منه. وعلى ذلك، فالزيجات التي كلّلها الحب غالباً ما تنتهي تعيسة؛ لأنّها تعنى عناية بهناء ورفاهية جيل المستقبل على حساب الجيل الحاضر. ويقول المثل الإسباني: «من يتزوج عن حب تكون حياته حياة أسى وعذاب»[1].

إنّه النقيض التام لزيجات المصلحة أو الاتفاقية، التي تعقد دائماً تقريباً بمباركة واختيار الأبوين. وجدير بالذكر أنّ المعايير والاعتبارات التي تتحكم في مثل تلك الزيجات، مهما تكن طبيعتها، هي على أقل تقدير حقيقية ولا يمكن أن تتبدد وتتلاشى من تلقاء ذاتها. إنّ الزيجات من هذا النوع تتعهد بالعناية، وترعى هناء وسعادة الأجيال الحالية على حساب أفراد المستقبل، وتبقى مع ذلك هذه السعادة مريبة وإشكالية. إنّ الرجل الذي يتزوج للمال لا للحب، يعيش من أجل مصلحة الفرد أكثر مما يعيش لأجل مصلحة النوع، وهو مسلك يتعارض مباشرة مع الحقيقة، ويبدو ضد الطبيعة، ويستثير بعض مشاعر الازدراء. والفتاة اليافعة

---

(1) (الأصل الإسباني: Quien se casa por amores, ha de vivir con dolores.).

التي دون أن تلتفت إلى نصائح والديها، ترفض طلب الزواج الذي يتقدم به رجل ثري تجري في بدنه دماء شابة، وتتجاهل كلّ اعتبارات ومعايير الاتفاق والترتيب، وتقر اختيارها على أساس الميل الغريزي وحده، لهي تضحي بسعادتها الشخصية من أجل سعادة النوع. ولكن لهذا السبب ذاته لا يمكننا أن نرفض موافقتها، لأنها فضلت الموضوع الأكثر أهمية، ولأنها تتصرف وفق روح الطبيعة (أو على وجه التدقيق، وفق روح النوع)، إلا أن الأبوين ينصحانها بروح الأنانية الفردية؛ وكنتيجة لكلّ هذا، يبدو أنّ عقد القران يعني أن مصلحة الفرد أو مصلحة النوع ينبغي لها أن تتكبد العذاب والضرر. وفي أغلب الأحيان فهذا ما يقع فعلاً، لأنه قلما يحدث، إما لصدفة عارضة أو ضربة حظ، أن يسير كلّ من الحب الشغوف والاتفاق، وهما يشبكان يداً في يد. ويمكن تفسير الحالة البائسة لمعظم الرجال جسدياً وأخلاقياً وفكرياً، تفسيراً جزئياً بحقيقة أنّ الزيجات لا تعقد، بصورة عامة، على أساس اختيار محض، وميل شخصي خالص، لكنها تكون نتيجة ألف اعتبار خارجي، وألف اعتبار لظروف عرضية. لكن وفضلاً عن الاتفاقات، فإذا راعينا أيضاً وإلى حد ما الميول؛ فإنّ ذلك يعني أننا توصلنا إلى تسوية، وانتهينا إلى حل وسط مع عبقرية الجنس (أو الروح الحارسة للنوع). وكما هو معلوم لدى الجميع، فالزيجات والارتباطات السعيدة نادرة للغاية، وذلك

لأنّ من جوهر الزواج أن يضع غايته النهائية وهدفه الرئيس في الجيل التالي، وليس في الجيل الحالي. ومع ذلك اسمحوا لي أن أضيف، كسلوى وعزاء للأرواح رقيقة القلب والحواشي، إنّ الحب المتقد يقترن أحياناً بإحساس آت من منبع آخر تماماً؛ أي من الصداقة الحقيقية، المبنية على توأمة الأرواح وتوافقها، التي لا تبدأ أبداً في الظهور إلا حين يخمد لهيب الحب الجنسي عقب إشباعه. وأرجح الظن، تنبع تلك الصداقة من واقع أنّ الصفات الجسدية والأخلاقية والفكرية، التي تتكامل وتتوافق بعضها مع بعض في فردين هائمين في الحب، من أجل الكائن الذي سيصور في الأرحام، ومن ثمّ فتلك الصفات، فيما يخص الأفراد أنفسهم، تبدو كذلك باعتبارها صفات مزاج أو طبع ومزايا فكرية متقابلة ومتنافرة منَ شأنها أن تتكامل فيما بينها، وأن تصلح بعد ذلك كأساس لتناغم الأرواح وتآلف القلوب.

إنّ نظرية ميتافيزيقا الحب التي تناولتها هنا بالتحليل لهي في كليتها، لا تتصل إلا قليلاً بمجموع فلسفتي الميتافيزيقية بوجه عام، والضوء الذي تسلطه على هذه الأخيرة يمكن أن يتلخص كما سيأتي:

لقد سبق ورأينا أنّ الاختيار الدقيق والحذر، الذي يوجه إرضاء الغريزة الجنسية، الذي من شأنه أن ينمو ويرتقي، درجات لا حصر لها، حتى يبلغ درجة الهيام، هذا الاختيار جلبه الرجل من

أجل إشباع غريزته الجنسية، ويرتكز على العناية البالغة والاهتمام الجدي اللذين يكرسهما الرجل من أجل التكوين الخاص والفردي للجيل المستقبلي. لكن هذه العناية وهذا الاهتمام اللافتان للنظر يؤكدان حقيقتين اثنتين أثبتناهما فيما سبق شرحه، من الفصول السابقة:

أولاً، أبدية ولافنائية ماهية الإنسان في ذاته التي تستمر في الوجود وتخلد نفسها في جيل المستقبل. فنظراً إلى أنّ هذا الاهتمام هو من الحيوية والنشاط والحماسة المتوقدة، الذي ليس نتاجاً لتأمل ولا لسابق قصد وعمد، وإنّما هو وليد الغريزة والدافع الأكثر حميمية في كينونتنا، فلا يمكن أن يبقى هكذا غير قابل لأن يمحى أو يمحق، وأن ينيخ على الرجل بكلكل قوته، علماً أنّ الإنسان كائن فان منذور إلى زوال حتمي، حتى إن كان عليه أن يكون متبوعاً زمنياً بعرق يختلف عنه قلباً وقالباً.

ثانياً، إنّ ماهية الإنسان في ذاته تكمن في النوع، وليس في الفرد. فلأنّ هذه العناية، وهذا الاهتمام الذي نعلقه على تكوين النوع أو طبيعته الخاصة، الذي هو أساس كلّ مغامرة غرامية وكلّ قصة حب، بدءاً من الانفعال العابر الذي سرعان ما يخبو إلى الهيام الأكثر وجداً ولوعة، لهو في حقيقة الأمر، القضية والشأن الأكثر أهمية لأي امرئ كان، أي القضية التي يهز نجاحها أو فشلها

حساسيتنا بشدة، أكثر من أي شيء آخر، ومن هنا السبب الذي يجعلنا نطلق عليها بامتياز، أمور وشؤون القلب. وهكذا، فلما عبر هذا الاهتمام عن نفسه بدقة وقوة، جعلنا تابعين، وضحينا في سبيله بالضرورة، بأي اهتمام وعناية لا تهم سوى شخصنا. وإنّ لأصدق شهادة ينطق بها الرجل أنّ النوع أقرب إليه من الفرد، وأنّه يعيش بشكل مباشر في الأول (النوع) أكثر من الثاني (الفرد)، لكن لماذا إذن على العاشق الضنين بنظرة أو التفاتة من عيون محبوبته أن يظل نهباً للهجر والصد والبعاد؟ وما عساه السبب الذي يفسر استعداده لأن يبذل الغالي والنفيس في سبيلها؟ لأنّ الجزء الخالد والسرمدي من كينونته يتوق إليها، ويرغب في تملك تلك المرأة، وكلّ موضوعات رغبته وميوله الأخرى تنصرف دائماً وفقط إلى الجزء الفاني. إنّ هذا الاشتهاء المتقد أو اللوعة الشديدة، المنصرفين إلى امرأة بعينها، شاهد وبرهان مباشر على أبدية نواة ماهيتنا في ذاتها، وعلى ديمومتها واستمراريتها في النوع. فالنظر إلى تلك الاستمرارية على أنها شيء تافه وغير كاف، لهو خطأ ينشأ من حقيقة أنّنا حين نفكر في بقاء النوع، لا نتخيل شيئاً آخر عدا الوجود المستقبلي لكائنات تشبهنا، لكنها ليست متطابقة معنا في أي بعد من الأبعاد، لأنّنا إذا انطلقنا من المعرفة الموجهة نحو الخارج، فإنّنا لا نضع في اعتبارنا إلا الشكل الخارجي للنوع، على نحو ما أدركناه بواسطة الحدس، وليس جوهره الداخلي العميق.

لكن هذه الماهية الداخلية والحالة هذه، هي التي تكمن بالتحديد في أساس وعينا الخاص باعتباره نواة لها؛ وهذا ما يجعلها أكثر مباشرة بالنسبة إلينا أكثر من الوعي نفسه، وكشيء في ذاته متحرر من مبدأ الفردية (principium individuationis)؛ هي في الواقع ماهية واحدة متطابقة في كلّ الأفراد، سواء وجدوا في نفس الزمن أم في المستقبل. هذه الماهية إذن هي إرادة الحياة؛ أي ذلك الذي يرغب بشدة وبقوة في الحياة والخلود، الذي بسبب ذلك يبرح في منأى عن ضربات وانقطاعات الموت، وفي الوقت نفسه، لا يمكنه أن يبلغ حالة مثلى وأفضل من حالته الحالية، وبالنتيجة فطالما ثمة حياة، فثمة أيضاً يقين ثابت بموت وعذابات وآلام تتربّص أبد الدهر بالأفراد. وتحرير الفرد من هذه الحالة رهن نفي إرادة الحياة، التي بواسطتها تنتزع الإرادة الفردية من أرومة النوع، وتتخلى عن الوجود الذي كان لها فيه. وكيما نعرف وجودها البعدي تعوزنا المفاهيم المناسبة، كما تعوزنا المعطيات لنكوّن فكرة عن ذلك. ليس في وسعنا سوى أن نشير إلى هذا الشيء على أنّه «من وما يملك الحرية في أن تكون أو لا تكون إرادة الحياة». وفي الحالة الأخيرة، تصفها البوذية باسم النيرفانا، التي سبق وحددت أصلها الاشتقاقي في الملاحظة في نهاية الفصل 41. وهي المسألة التي ستبقى إلى الأبد عصية على المعرفة الإنسانية، وذلك بسبب طبيعتها.

لو آننا الآن، من وجهة نظر ما وضعتنا فيه هذه الاعتبارات الأخيرة، خفضنا عيوننا إلى معمعة الحياة، فماذا سنرى يا ترى؟ سنرى أنّ الكلّ، تحت كلكل البؤس ووطأة الحرمان، يسعون وسع طاقاتهم ويسخرون كلّ قواهم من أجل تلبية حاجاتهم التي لا تنتهي، وهم يحاولون أن يصدوا عنهم وجوه المعاناة المختلفة، دون أن يقدروا مع ذلك، على أن يأملوا شيئاً آخر غير الإبقاء على هذا الوجود الفردي، المُثقَل بصنوف شتى من الأوجاع والمعاناة، وفي نزر يسير من الزمن. لكن، في قلب هذا الجلبة والمعمعة، نطالع نظرات محبين تقدح شهوة ورغبة وهي تتلاقى، لكن لماذا كلّ هذا في السر والخفاء والخوف والخجل؟ ـ لأنّ ذينك العاشقين المحبين خائنان، يعتزمان سراً تخليد كلّ هذا البؤس وتأبيد كلّ هذه الأتراح، والتي لولاهما كانت ستنتهي قريباً. إنّهما يريدان أن يحولا دون نهاية كلّ هذا الشقاء، كما سبق وحاول سدى أشباههم من العشاق والمحبين من قبل. لكن هذه الاعتبارات تخمن مسبقاً وبها نتجاوز تخوم الفصل القادم.

مقالة في النساء

تتناول هذه المقالة الأفكار الرئيسة الآتية:

مصير النساء ـ حسنهن وجمالهن الزائل ـ النضج ومحدودية ملكة الذكاء عندهن.

إنّهن يبقين رهينات الحاضر على العكس من جنس الرجال، إنّهن مجبولات على الإشفاق والرثاء لحال الآخرين أكثر من انتصارهن للعدالة؛ الكذب هو وسيلة الدفاع الطبيعيّة لدرء ضعفهن به.

تُسخّر مشاعر وعواطف النساء لخدمة مصالح النوع. إنّ روح التنافس فيهن تأتي من جنوحهن الفريد.

إنّ هذا الجنس لهو، في جوهره؛ قبيح وبشع ولا يملك أدنى إحساس بالجميل. وإذا اصطنع هذا الجنس المنحط تكلفاً وتظاهراً بمحبة الفنون، فذلك لأنّ النساء يرغبن في إغواء وإثارة إعجاب الرجل.

السيدة في الغرب.

الزواج فخ وعبودية.

إنّ أصدق مديح وأجلّ تقريظ قيل في حقّ النساء لهو، من وجهة نظري، ذلك الذي لا مجال، على أي وجه كان، لمقارنته بقصيدة شيللر ذات النفس التمجيدي المهيب والموقر كرامة النساء (Würde der Frauen)، هو خير ما عبّرت عنه هذه الكلمات الزهيدة لخوان جوي التي يقول فيها: «لو لم تكن النساء في حياتنا، لكانت طفولتنا بلا أي نجدة أو غوث، ولما نعمنا بأي لذّات في ربيع عمرنا، ولعدمنا في خريفه أي عزاء وأية مواساة.»[1]

وعلى ذات المنوال تقريباً، نُظِمت أبيات من قبل اللورد بايرون في ساردانابلوس، تنضح لغتها شجى وجزعاً، وتوقد دخائل النفس، وتهيج ثائرة العواطف (ساردانبولوس، الفصل الأول، المشهد الثاني):

«كان على أول الحياة الإنسانية أن ينشأ من ثدي المرأة،

ولا شك في أنّ كلماتك الصغيرة الأولى قد تعلمتها من شفتيها،

وهي أول من سارع إلى كفكفة دموعك،

وزفراتك الأخيرة، وأنتَ تنازع الموت، لا بدّ أن تطلقها على مسامع امرأة

(1) يرد الاقتباس في الأصل باللغة الفرنسية، وهذا مضمونه: «Sans les femmes, le commencement de notre vie serait privé de secours, le milieu de plaisir, et la fin de consolation.»

يوم يأتي حين من الدهر يأنف الرجال طراً من أن يعولوا على من كان مولى عليهم، وهو في أرذل العمر»[1].

يعكس كلّ من الاقتباسين السابقين وجهة النظر الصائبة فيما يخص قيمة وقدر النساء.

* * *

ما على المرء إلا أن يتطلّع ملياً إلى هيئة الأنثى، ليشهد بأم عينه أنّ المرأة ليست منذورة لأجَلّ الأعمال، أو لعظيم المآثر؛ فهي غير مهيأة أصلاً لأعمال الفكر، ولا الطبيعة عركتها لأشق الأعمال البدنية. إنّها تسدد دينها تجاه الحياة ليس بما تفعله أو تعمله، وإنّما بمكابدتها أمض ألوان وفنون المعاناة؛ فهي تؤدي الدين أقساطاً مقسطة بصرخات أوجاع الحمل وآلام المخاض، وحدبها على الطفل وتعهده بالرعاية والحنان إلى أن يشتدّ عوده. وبتمليكها قياد نفسها لزوجها الذي عليها أن تذعن لإرادته وتتعهّد ببره وتستسلم له، فلا تشق عصا طاعته، وتكون له الصاحبة الجلود الصبورة والجذلى، التي تواسيه وتسليه على عوادي الدهر. إنّ المرأة ليست مخلوقة لا للجهود الشاقة المضنية، ولا لاستعراض القوة، وما خلقت أيضاً للإصر والأتراح والأحزان، ولا للذّات المتقدة، ولا بدّ أن تحيا حياة يطبعها السكون والدعة وتخيم عليها

(1) يعرض شوبنهاور هذه الأبيات الشعرية بلغتها الإنجليزية الأصلية.

السكينة والهدوء المطبقان، وأن يلفّها صمت الأموات فلا يقطع حبله تطفّل أو كثرة تسآل في مقابل حياة الرجل الهائجة المائجة، ومن غير أن تكون حياتها، في جوهرها، لا حياة سعيدة سعادة مطلقة، ولا حياة شقية بكليتها.

* * *

إنّ النساء [بطبيعتهن] مؤهلات وقادرات على أن يكنّ مربيات وحاضنات طفولتنا الأولى، وذلك لأمرٍ بديهيٍّ بسيط يكمن في كونهنّ صبيانيات تافهات، وخرقاوات جهولات قصيرات النظر ضيقات الأفق، وبكلمة واحدة، إنّهنّ يلبثن طوال حياتهن طفلات كبيرات، أي إنّهنّ يبقين في منزلة وسطى لا تحور بين الطفل والإنسان الراشد، هذا الأخير الذي نقصد به الكائن الإنساني بالمعنى القطعي والحرفي للكلمة، لا معناها المجازي. فلتطالع عيناك طوال اليوم أية فتاة في ميعة الصبا، وهي تهدهد عروسها الخشبية وتمرح مع طفل صغير، وتراقصه وتدندن له، ولك أن تتخيّل ماذا في إمكان رجل يتمتع بأقوى إرادة في العالم أن يصنع لو كان في مكانها.

* * *

يبدو أنّ الطبيعة أرادت أن يكون لدى الشابات الفتيات، ما

يمكن أن نصطلح عليه بلغة الفنّ المسرحي؛ تأثير المسرح (stage effect -) أو الإحساس بالتأثر. إنّ الطبيعة تحبوهنّ لسنوات قليلات بجمال آسر، وبحسن الصورة والأناقة، وبكمال استثنائي وغير عادي وبمفاتن جذابة على حساب ما بقي من حياتهن، لكي يحظين طيلة هذه السنين السريعة من الغضاضة النضرة، ما يستطعن به أن يستحوذن على لبّ رجل، وترغيبه في أن ينذر كامل حياته لرعايتهن بولاء وإخلاص، وعلى نحو يليق بهن، مدى الحياة. ولكي ينجحن في مخططهن، فالتأمّل الخالص ورجاحة العقل، ليسا بضمانتين كافيتين، ولا ملائمتين لتدفعا [ذلك الشقي المنكود] إلى أن يقدم على مثل تلك الخطوة غير محسوبة العواقب. ومن أجل ذلك، سلّحت الطبيعة النساء، شأنهن شأن باقي المخلوقات الأخرى، بالأسلحة والأدوات الضرورية القمينة بتأمين وجودهن، وباستخدامها عند الضرورة، وكلما كانت الحاجة داعية إليها، لأنّ من نواميس الطبيعة وسننها، التي لا تبديل لها في هذا الأمر، أن تتصرّف بتقشّفها الاعتيادي. فكما أن النملة الأنثى، بعد اتصالها بشريكها الذكر، تفقد جناحيها اللذين يمسيان غير ضروريين وخطرين على بقائها حية حتى في مرحلة الحضانة، فإن جمال المرأة كذلك غالبا ما يضوي ونضارتها غالبا ما تذوي بعد نفاسين أو ثلاثة، والأرجح بلا شك لذات السبب. ومن هنا نصل إلى أنّ الفتيات اليافعات ينظرن، بوجه عام، إلى أعباء البيت

ومشاغله أو واجبات وضعهن (حالتهن) على أنها مجرد أشياء تافهة حقيرة لا تستحق حتى الذكر، أما في أمور الحب، وغزواتهن في الإغواء، وكلّ ما له صلة بها كالزينة والتبرج والرقص وما إلى ذلك؛ فيعتبرنها شغلهن الشاغل وموهبتهن الفريدة.

* * *

بقدر ما يكون الشيء نبيل الأصل، وشريفاً وكاملاً، بقدر ما يكون نموه وتطوره بطيئاً، ويتطلب وقتاً أكثر ليتصلّب عوده ويصل مرحلة النضوج. لا تستوي ملكات الرجل العقلية وتبلغ مرحلة النضج وكمال الإدراك إلا في حوالي الثامنة والعشرين من عمره. فيما تدرك المرأة، وبخلافه، الرشد العقلي في سن الثامنة عشرة. ولذلك؛ فملكة عقل المرأة هي ملكة توافق سن الثامنة عشرة في هزالتها وسذاجتها ومحدوديتها. وهذا هو بالذات السبب الذي يجعل النساء يبقين طوال حياتهن مجرد طفلات صغيرات. إنّهن لا يرين أبعد من أرنبة أنوفهن، وما تحت أيديهن، ولا يتعلقن إلا بالحاضر، ويأخذن ظاهر الأشياء على أنّه حقيقتها، ويؤثرن سفاسف الأمور وأتفه الأشياء وأحقرها، ويذهلن عن نفائس الأشياء وأرفعها قيمة. أما الرجل، فبفضل قواه العقلية وبعد نظره، فهو لا يحيا في الحاضر فحسب، على منوال ما تفعل البهيمة، ولكنه يتوجه إلى الماضي ويستشرف المستقبل؛ وهذا مصدر

حذره وتحوطه الشديدين، وحرصه ومبالاته، وقلقه وتشوشه المتواتر. ونتيجة لملكاتها العقلية المحدودة، تكون المرأة بعقلها الأخرق أقل من مجرد مشارك في المزايا والمساوئ، التي تنتج عنها. وعلى الضد من ذلك، فالمرأة مصابة بقصر النظر الفكري، ما دام أنّ فهمها الحدسي لا يمكنها إلا من رؤية واضحة للأشياء القريبة فقط. ومن ناحية أخرى، فإنّ مدى رؤيتها محدود، ومن ثمّ فكلّ ما هو قاصٍ بعيد المنال يتفلّت منها. من هنا نستشف إذن أنّ كلّ ما هو غائب أو ماض أو مستشرف في المستقبل، يكون وقعه على النساء أقل وأخف وطأة من تأثيره فينا نحن معشر الرجال. وهنا أيضاً ينبع هذا الميل غير الواعي إلى المبالغة في الإسراف، والتبذير الذي قد يكون أحياناً الجنون سدرة منتهاه. «إنّ المرأة بطبيعتها مبذرة مضياع»[1]. في صميم أفئدتهن تتصور النساء أنّ قدر الرجال المقدور أن يكسبوا ويجنوا المال، فيما وجدن هن لبعزقته وتبديده في غير موضعه، وفي حياة أزواجهن ما أمكنهن ذلك. وليس بأي حال عقب موته. وإذا حرمن منه في حياة زوجهن، فهن يعوضن خسارته بعد موته. وما يثبت هذه القناعة ويرسخ هذا الاعتقاد في أنفسهن، هو أنّ زوجهن يمنحهن ما اكتسب من أموال

---

(1) (Menander, Monostichoi, 97)

ورد القول المأثور باللغة اليونانية في النص الأصلي. وهو مقتبس عن الشاعر اليوناني ميناندرس: «Δαπανηρὰ φύσει γυνή» (المترجم).

من أجل النهوض بأعباء تدبير المنزل. على الرغم من أنّ هذا قد يفضي إلى مساوئ كثيرة فهو مع ذلك يتمتّع بميزة واحدة؛ هي أنّ المرأة تكون تائهة مستغرقة في اللحظة الحاضرة أكثر من شقيقها الرجل، ومن ثمّ فهي تتمتّع بتلك اللحظة أكثر طالما بقيت لا تنوء بثقلها أكثر ممّا نفعل نحن؛ وهذا سر ذلك المرح وخفة الروح التي تميزها، هي ما يجعلها قادرة على أن ترفه وتروح عن الرجل، وبها في وقت الحاجة عزاء وسلوان له، عندما يكون غائصاً في وحل الهموم ولجة الرزايا.

ففي الضراء وأوقات الشدائد، علينا ألا نتردد برهة أو نتحير هنيهة في استشارة النساء، ولا أن نستهين بطلب نصائحهن سيراً على مذهب وديدن الجرمان القدامى؛ لأنّ لهن طريقة فريدة عجيبة في إدراك الأشياء، مختلفة أشدّ الاختلاف عن طريقة الرجال، لا سيما وأنّهن ينتهجن أقصر السبل للظفر بمآربهن، ولأنّهن عادة ما يبقين نظرهن ثابتاً على ما هو قريب منهن، وسهل المرام. أما نحن معشر الرجال، وعلى النقيض منهن، فلأنّ ما يقع تحت أنوفنا من الأشياء عادة ما نذهل عنه ونستخف به، ومن ثمة بات، والحالة هذه، يتعيّن علينا أن نعود أدراجنا إلى ذلك الشيء لكي نتمكن من استعادة الرؤية القريبة والطبيعية. وعلاوة على ذلك، إنّه لمن المؤكد أنّ النساء يملكن ذهناً عملياً أكثر من الرجال، ولذلك فهن

يكتفين برؤية الأشياء كما هي بالفعل، فلا يتزيدن. في حين إذا ما حدث واستثيرت انفعالات الرجال، لا تتورّع النساء عندئذٍ عن تهوين وتهويل ما هو موجود وحاضر، أو عن اختلاق شيء جديد من بنات خيالهن.

ومن ذات المصدر يمكن تفسير واقعة أنّ النساء يبدين شفقة أكثر من الرجال، ومن ثمّ فهن أظهر من الرجال وداً ومحبة وتعاطفاً خاصة تجاه البؤساء من عاثري الجد ومنكودي الحظ، في حين أنّهن، من ناحية أخرى، دون الرجال درجة في كلّ ما يمسّ الإنصاف والمساواة، والاستقامة والشرف ويقظة الضمير. وبسبب ضيق حدود فكرهن وحصر ملكتهن العقلية، فكلّ ما هو حاضر، وحدسي، حقيقي بصورة مباشرة، يستحوذ عليهن فلا يملكن أمامه لا أن يلذن بالأفكار المجردة، ولا بالحكم المأثورة المقررة، ولا بالعزائم الثابتة، ولا بأي اعتبار سواء للماضي أم المستقبل، ولا لما هو بعيد أو غائب، فكلّ هذا، قلما ينفع في شيء. وعلى ذلك، فلا ريب في أنّهن لا يملكن من الفضيلة سوى الميزات الأولى والأساسية، أما من جهة الميزات والصفات الثانوية والكمالية التي تعتبر وسيلة ضرورية للأولى، فتعوزهن. وفي هذا الصدد، يمكن مقارنة النساء بعضوية حية تملك كبداً، ولكن دون مرارة (أو حويصلة صفراوية). وهنا أحيل على ما ورد في الفقرة 17

من مقالتي «في أسس الأخلاق». وبناءً على ما تقدم، نستنتج أنّ العيب الجوهري الذي يطبع النساء هو غياب أي «حس بالعدالة» عندهن. هكذا؛ فالظلم والحيف هو العيب الرئيس للطبائع النسائية. ومأتى هذا في أصله عوزها إلى الحس السليم، وقلة تفكرها أو روية تبصرها، الذي سبق وأشرنا إليه، ما يفاقم بدوره هذا العيب الشائن ويزيده استفحالاً، ويرجع هذا جزئياً إلى واقع أنّ الطبيعة أبت أن تحبوهن القوة (كجنس لطيف)، فأعطتهن الكيد والخديعة لحماية ضعفهن، وجعلت الدهاء وعظيم الكيد والحيلة من نصيبهن؛ وهذا ما يفسر كيدهن وختلهن الغريزي ونزوعهن الفطري، الذي لا يُغالَب، إلى الكذب. فكما غرست الطبيعة في السبع أنياباً ومخالب، وجهزت الفيل والرت (الخنزير البري) بأنياب، والثور بقرنين، والحبار بسائلِ حبرهِ الذي يمكنه من تعكير الماء من حوله بالسواد، فإنّ الطبيعة لم تنعم على المرأة بأي سلاح لتدافع عن نفسها وتستجير به، سوى فنّ التخفي والتورية والتستر خلف مظاهر كاذبة؛ وتنوب هذه الملكة مناب القوة التي يستمدها الرجل من قوة جوارحه ورجاحة عقله. ومن ثمّ فإنّ معايب التمويه والتلبيس والتصنع فطرية أصيلة في النساء، وتجري منهن مجرى الدم، سواء أكانت المرأة حاذقة نافذة البصيرة وبعيدة النظر أم كانت على الضد من ذلك؛ امرأة بلهاء رعناء راكدة الذهن، فمن الطبيعي بالنسبة إلى المرأة كذلك أن تغتنم أية فرصة وتنهز أية مناسبة، كيما

تستخدم سلاحها الفتاك ذاك على ذات ما تصنع الحيوانات، التي ذكرناها أعلاه، التي لا تتردد أبداً في الدفاع عن نفسها ولا تذخر قط أسلحتها الطبيعية، حين يدهمها حيوان آخر بالهجوم. وبالتصرف على هذا النحو، فهي تشعر في خبيئة نفسها أنّها إلى حد ما، لا تفعل سوى ما خولتها الطبيعة بِهِ من حقوق طبيعية. ما يستتبع أنّه ربّما من المستحيل أن تعثر على امرأة نزيهة وصادقة تصون العهد دون أن تكون متصنّعة؛ ولهذا السبب تحديداً تخترق رؤية النساء، بلا عناء وبسهولة ويسر، كلّ من حاول أن يموه أو يتخفّى تحت قناع كاذب؛ إذ ليس من الآمن لك أن تحاربهن بنفس سلاحهن. من هذا العيب الفادح ومن تبعاته تأتي مصائب الرياء والزيف، والختر والغدر، والخيانة، والجحود والكنود... وما إلى ذلك. ويحدث أيضاً أن تحلف النساء زوراً أمام المحاكم بمرار تتواتر أكثر من شهادات الرجال الكاذبة، وبصفة عامة بات من حقنا أن نتساءل هل علينا بعد هذا أن نقبل شهادتهن وأداءهن قسم اليمين؟ يحدث بين حين وآخر، وفي حالات متكررة، أن تقفو عيناك حالة سيدات لا ينقصهن شيء، ومع ذلك تضبطن متلبّسات بالسرقة في أحد المحلات التجارية.

* * *

لقد هيأت الطبيعة الشبان اليافعين الوسيمين ذوي الشدة والبأس، ليسوّدوا من نسل العرق البشري؛ كي لا ينقرض بنو

الإنسان من على وجه هذه الأرض. على هذا النحو عبّرت الطبيعة عن إرادتها، التي لا تلين، وهيام الرجال بالنساء وتحبيبهم إليهن، أظهر تعبيراتها. ومن بين جميع التشريعات الأقدم والأكثر قوة ونفوذاً فإنّ هذا القانون يأتي أولاً بالتأكيد. واللعنة والويل والثبور لأيٍّ كان يتجرأ على وضع حقوقه ومصالحه ومقدراته، بطريقة تجعلها تقف في طريق ذلك القانون. فمهما يكن ما فعل أو قال، فإنّها ستسحق في أول فرصة مواتية، من غير رحمة ولا شفقة؛ لأنّ الأخلاق السرية، غير المُعبّر عنها والمحفورة في طوايا اللاوعي، ولكن الفطرية في النساء، هي كالآتي: «من حقنا أن نخدع ونضلل أولئك الذين زيّن لهم الظنّ أنّهم يملكون الحق على النوع، فقط لأنّهم يعيلوننا نحن الأفراد، فإلينا نحن النساء عهد، وعلى كاهلنا يقوم بنيان وخير النوع ورخاؤه؛ أي خلق أجيال المستقبل، فاتركونا نؤدي واجباتنا بكلّ وعي وضمير حي». غير أنّ النساء لسن واعيات أبداً بهذا المبدأ الأعلى بصورته المجردة (in abstracto)، وإنّما هن قادرات على إدراكه واقعاً ملموساً (in concreto)؛ ولهذا فليس لهن سبيل آخر إلى التعبير عنه، غير الفعل، وذلك وقتما تسنح الفرصة. فضميرهن عندئذٍ لا يعذلهن كما يمكن أن يذهب بنا وهم الاعتقاد؛ لأنّه في الدرك الأكثر قتامة من قلوبهن، يستشعرن على نحو غامض ومريب بأنّهن بتقصيرهن في واجباتهن تجاه الفرد، فإنّهن يؤدين على أكمل وجه واجباتهن

تجاه النوع البشري، الذي له حقوق أعظم وأسمى بما لا حد له (لتفاصيل أوفى حول هذا الموضوع، أحيل القارئ إلى الكتاب الثاني، الفصل 44 من عملي الأساسي: العالم كإرادة وتمثل).

بما أنّ النساء خلقن، في الأصل، ليكفلن تكاثر وتناسل النوع، الذي يتماهى معه مصيرهن، وبما أنّ وظيفتهن تتركّز في هذه النقطة بالذات، فإنّهن يُسخّرن حياتهن للنوع أكثر من الأفراد، ويتحمّلن في الجوهر مسؤولية مصلحة النوع بجدية بالغة، مقارنةً بمصالح الأفراد. وهذا ما يضفي على كلّ كيانهن وعلى طبعهن وعلى سلوكهن نوعاً من الخفة والطيش، وعامّةً، نوعاً من النزوع المتعارض جوهرياً مع مذاهب واتجاهات الرجل، وهذا ما يؤجّج فتيل الشقاق، ويقطع حبل الوصل الذي غالباً ما يتواتر بين الأزواج، إلى الحد الذي جعله وضعاً عادياً وطبيعياً في كلّ الزيجات تقريباً.

***

إنّ ما يطبع علاقة الرجال بين بعضهم هو اللامبالاة. أما النساء، فهن يناصبن بعضهن العداءَ طبيعياً. وربما نشأ هذا، بالنسبة إلى الرجال، عن حسد الحرفيين (odium figulinum)[1]؛ أي التنافس

(1) حسد أو غيرة الحرفيين والمهنيين، وتعني العبارة حرفياً: كراهية خزاف لخزاف آخر. ولربما استعار شوبنهاور العبارة من هيزيودوس الذي يقول في «الأعمال

بين الرجال في نطاق حرفة ما، في حين أنّ التنافسية بين النساء تطوق وتشمل كلّ الجنس، بما أنّ لهن عمل واحد وشغل واحد يشغلهن. فإن تلاقت أعينهن في زقاق من الأزقة، فإنّهن يحدجن بعضهن بنظرات شزراء كأنّهن الغيلفيين والغيبيلينيين[1]. وإلى ذلك فإنّ ما يشدّ الانتباه في أول لقاء بين امرأتين أنّهما تبديان تقيداً متكلفاً وتصنعاً لا يخلو من حذلقة، بل وتتحفّظان أكثر ممّا يفعل رجلان تصادفا في موقف مماثل. وللسبب ذاته، فلما تطري النساء على بعضهن، وتتبادلن المجاملات فلا أحد من الرجال يمكن أن يعلو كعبه عليهن في سخفهن. لكن لتلحظ كذلك أنّ الرجل، وهذه قاعدة عامة، عندما يوجه كلامه إلى غيره فهو يتحدث عادة بقدر من المراعاة، وبحس إنساني رهيف، حتى مع ذوي المنزلة السفلى ممّن هم دونه مقاماً وأقل شأناً، لكن يغدو الأمر غير محتمل حينما ترى بأي عجرفة وتعالٍ وازدراء وتكلّف متصنّع تخاطب امرأة من المجتمع الراقي امرأة أخرى من طبقة أدنى

والأيام»: «يغار الخزاف من الخزاف، والحرفي من الحرفي، والمتسول الفقير يحقد على المتسول المعدم، والشاعر المغني على الشاعر المنشد» (راجع: He-siod, Works and Days, II, 25 _ 26). (المترجم).

(1) الغيلفيون والغيبلينيون هما فصيلان من القرون الوسطى عارض كل منهما الآخر عسكرياً وسياسياً وثقافياً في إيطاليا إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر. في الأصل، دعم الحزبان على التوالي سلالتين حاربتا من أجل عرش الإمبراطورية المقدسة: أيد الغيلفيون البابوية، في حين ساند الغيبيليون الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة (Saint _ Empire). (المترجم).

(عندما لا تكون مسخرة لخدمتها)؛ وهذا راجع ربما إلى أنّ فروق المكانة الاجتماعية (التفاوتات الطبقية) بين النساء أكثر عرضية، لا تدوم وعابرة، مقارنة بها عند الرجال، ولأنّ هذه التفاوتات قد تتبدل أو تزول بسرعة. إنّ المنزلة التي يتبوؤها الرجال تتعلّق بمئة اعتبار واعتبار، أما في حالة النساء فاعتبار وحيد يكفي؛ أي ذلك الرجل الذي نلن إعجابه وخطبن وده. ومرة أخرى، فلأنّ وظيفتهن وحيدة الجانب، تضعهن على قدم المساواة فيما بينهن بشكل أميز من الرجال، ولهذا السبب تجدهن أحرص الناس على توكيد وإظهار تلك التفاوتات الطبقية، وجعلها فاقعة البروز.

* * *

وحده الرجل الذي على بصره غشاوة أو من كان ذكاؤه معتماً بسبب دافعه الجنسي (Geschlechtstrieb) هو من سيخطر على باله أن يطلق على هذا الجنس القزمي غير مكتمل النمو، ضيق المنكبين، واسع الوركين وقصير الساقين اسم: الجنس اللطيف. إنّ كلّ جماله يكمن حقيقةً في غريزة الجنس. كان من الأولى والأنصف أن ندعو جنس الأنثى بالجنس الدميم الذي يفتقد إلى الحس الإستيطيقي، بدلاً من الجنس اللطيف. إنّ النساء، بلا ريب، لا يملكن إحساساً أو ذائقةً موسيقية أو شعرية أو ذائقةً في الفنون التشكيلية؛ فهن حينما يردن التظاهر وادعاء استلطاف تلك

الأشياء فذلك لا يعدو عندهن أن يكون مجرد تقليد أخرق، أو محض تصنع وتكلف كاذب أو مطية يركبنها لإشباع رغبتهن في إثارة الإعجاب (والإبهاج والتسرية). وهذا ما يجعلهن عاجزات عن الاهتمام بشكل موضوعي خالص بأي شيء كان، والسبب في ذلك، كما أجدني أميل إلى الاعتقاد، هو على النحو الآتي: إنّ الرجل لا يذخر جهداً ويصرف كلّ قواه لإحكام سيطرة مباشرة على كلّ شيء، سواء بذكائه أو ملكة فهمه أو بقوته البدنية بإخضاعها والتحكم فيها، وفي مقابله، فالمرأة دائماً وحيثما كانت تلفيها تتحكّم في الأشياء بطريقة غير مباشرة، أي إنّها؛ ليس لها عليها سلطان إلا من خلال الرجل، الذي تمارس عليه وحده تأثيراً مباشراً. بالنتيجة؛ فمن طبيعة المرأة أن تتخذ من كلّ الأشياء وسيلة للظفر بالرجل، وما اهتمامها، بأي شيء آخر، إلا مجرد تصنّع وتمويه خدّاع ومواربة، وبعبارات أخرى، محض تغنّج وتقليد أخرق (أو حرفياً: مجرد سعدنة). وقد جاء على لسان روسو: «النساء بصورة عامة، لا يحببن أي فنّ، ولا يعرفن أياً من الفنون، ويعدمن أية عبقرية»[1]. إنّ كلّ أولئك الذين لا يوقفون اهتمامهم

---

(1) (رسالة إلى دالامير، الحاشية 20.)

كعادته في الاقتباس، يطعم شوبنهاور نصه بشهادة روسو في النساء بلغتها الأم: «Les femmes, en général, n'aiment aucun art, ne se connaissent à aucun, et n'ont aucun génie.» Lettre à d'Alembert [sur les Spectacles (on the Theatre), 1758]. (المترجم)

على المظاهر الكاذبة الخدّاعة يمكنهم ملاحظة ذلك. يكفينا أن نرى على سبيل المثال، كيف تتصرف النساء وعلى أي حال يكن، ونتحرى ما يسترعي انتباههن في حفلة من الحفلات الموسيقية، أو في الأوبرا أو في المسرح، لنقف بأم أعيننا على سذاجتهن الصبيانية السافرة وهن يستأنفن ثرثرتهن المهذارة بلا نصب ولا لغب أمام أروع المقاطع من أعظم التحف والروائع الفنية. إذا صح أنّ الإغريق كانوا بالفعل يحظرون على النساء حضور الحفلات والمسرحيات، فقد كانوا على حق؛ فعلى الأقل كان في مستطاعهم أن يسمعوا شيئاً في مسارحهم. وفي أزمنتنا هذه سيكون من الأنسب أكثر لو أضفنا: «لتصمت نساؤكم في الكنائس mulier taceat in ecclesia»[1] إلى «لتصمت نساؤكم في المسارح taceat mulier in theatro»، أو أن نستبدل المبدأ الأول بالثاني، ونكتب هذا الأخير بخط عريض ونعلقه على ستارة المسرح. فماذا عسانا نتوقع من النساء، وهذا الجنس بكليته لم يستطع أن يوجد عقلاً واحداً عظيماً بحق، ولا تحفة ولا مأثرة واحدة عظيمة وأصيلة في الفنون الجميلة، ولا وهبن للإنسانية أي مؤلف رفيع له قيمة أبدية. وهذا مثير للانتباه فيما يتعلق بالرسم والتصوير، ومع ذلك فإنّ في متناولهن مثلنا الإحاطة بالجانب التقني، وهن يواظبن على متابعة

(1) «لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، 14: 34).

هذا الفنّ بدأب لا يفتر، دون أن يظفرن بشرف المجد بأي تحفة فنية، لأنّ ما ينقصهن، بدقيق العبارة، هو موضوعية الذهن؛ التي هي شرط لازم في فنّ الرسم (التشكيلي). إنّهن يلتصقن بما هو ذاتي، وهن عاجزات عن الخروج من ذواتهن. وببقائهن على تلك الحال، فالنساء العاديات لا يملكن أية حساسية لفنّ الرسم قط، لأنّ الطبيعة لا تصنع الطفرات (natura nonfacit saltus)[1]. وفي مؤلفه الشهير «فحص ذكاء الإنسان»[2] (Amberes 1603)، الذي يعود إلى ثلاثمئة سنة خلت، يرفض خوان هوارتي أن تتمتع النساء بأي قدرات عليا. يقول في تصديره الكتاب[3]: «إنّ البنية الطبيعية التي تمتلكها المرأة في دماغها غير مناسبة لتجعلها ذكية وعبقرية، ولا لتكون حصيفة حكيمة». ويردف في الفصل الخامس عشر[4]: «فكلما احتفظت المرأة باستعدادها الطبيعي، كلما نبا عقلها عن كلّ أجناس الأدب والمعرفة». ويقول أيضاً[5]: «ليس في وسع النساء (بسبب البرودة التي تميز جنسهن) أن يبلغن درجة الفكر

(1) الطبيعة لا تصنع الطفرات (وإنّما هي تمضي تدريجياً من نوع إلى نوع). (المترجم).

(2) عنوان الكتاب الأصلي باللغة الإسبانية: «Examen de ingenios para las sciencias» (المترجم).

(3) الصفحة 60.

(4) الصفحة 382.

(5) الصفحات 397 و398 من الكتاب نفسه.

العميق. ولا نراهن إلا وهن يثرثرن بتصنّع متكلف بالحذاقة والخبرة في أمور بسيطة تافهة ومبتذلة»[1]... وما إلى ذلك.

إنّ بضعة استثناءات معزولة وجزئية لن تغير القاعدة في شيء، لكن إذا تحدثنا بنوع من التعميم، فالنساء كن، وسيبقين في مجملهن محض فيليستينيات[2] ميؤوس من برئهن. فلربما بسبب تنظيمنا الاجتماعي، العبثي إلى أقصى درجة، يستطعن أن يتشاطرن لقب ومنزلة الرجل، ويستمتن في تحفيز أخس طموحاته بشراسة وضراوة. وعلاوة على ذلك، فبسبب كونهن فيليستينيات؛

(1) ورد الاقتباس، في الأصل، باللغة الإسبانية وهذا نصه:

la compostura natural, que la mugertiene en el celebro, no es capaz de mucho ingenio ni de mucha sabiduria…quendado la muger en su disposicion natural, todo genero de letras y sabiduria, es rupugnante a su ingenio… las hembras (por razon de la frialdad y humedad de su sexo) no pueden alcançar ingenio profundo : solo veemos que hablan con alguna aparencia de habilidad,en materias livianas y faciles.

(2) تطلق في الكتاب المقدس على الشعب الذي طغى على الكنعانيين والعبرانيين والذي هزمه جيش داود. وقد استمر استخدام هذه الصفة بمعناها القدحي في العصر الحديث. ففي الأدب الألماني للقرن التاسع عشر (تأثرا بأعمال العظيمين غوته وشيللر) كانت صفة «Philistines» (في الألمانية: Philister) تدل على الأشخاص الغرباء على الجامعات، والرعاع أعداء العلم والعبقرية. ويشير اللفظ، بصفة عامة، إلى كل شخص متبلد الذهن ضيق الأفق لديه موقف مناهض للفكر، إنه أسلوب أو طريقة للحط من قدر الطبقة البرجوازية، ويتداول استخدامه بنفس الطريقة في بلدان أخرى كفرنسا من طرف جيرار دو نيرفال وثيوفيل غوتييه. أما عند شوبنهاور فاللفظة رمز للبربرية والغباء. (المترجم).

فالمجتمع الحديث الذي منحته نبرته الخاصة، الذي كانت لهن السيطرة عليه، أصبح فاسداً. وإزاء الأول، علينا أن نقتدي بكلمات نابليون التي تقول: «ليس للنساء أية مكانة».[1] أما بالنسبة إلى الباقي، فشانفور لم يجانب الحقيقة حينما صرح: «إنّهن خلقن كي يبعن ويشترين في وهننا وخورنا، ويتاجرن بجنوننا، ليس بعقلنا. صحيح أنّهن يشاركن الرجال لون البشرة، لكن قَلّ ما يشبهنهن في الذهن والروح والطبع»[2]. صدقاً، إنّ النساء هن الجنس الأدنى (sexus sequior)[3]؛ أي الجنس الذي يأتي في المرتبة الثانية وذلك على جميع الأصعدة. وبعبارة أخرى، فهن وجدن ليكن مستعبدات، وفي خلفية المشهد. وبناء عليه، علينا أن نتعامل مع ضعفهن بحلم وأناة وطول بال، ولكن من الغباء أن نمعن في توقيرهن ونتمادى في تشريفهن؛ لأنّ ذلك قد يحطّ من شأننا في أعينهن. فالطبيعة لما شطرت الجنس البشري إلى شقين، كانت قسمتها قسمة ضيزَى إذ لم تحسن قطع الشقين بدقة

---

(1) ورد الاقتباس بالفرنسية في الأصل، وجاء كالتالي: «Les femmes n'ont pas de rang». (المترجم).

(2) العبارة الفرنسية جاءت في النص الأصلي لشوبنهاور كما يلي: «Elles sont faites pour commercer avec nos faiblesses, avec notre folie, mais non avec notre raison. Il existe entre elles et les hommes des sympathies d'épiderme, et très peu de sympathies d'esprit, d'âme et de caractère». (المترجم).

(3) مقتبسة عن أبوليوس في كتاب التحولات، الجزء السابع، الفصل الثامن. (المترجم).

من المنتصف. وعلى الرغم من أي استقطابية، إلا أنّ الفرق بين القطبين الموجب والسالب ليس فقط فرقاً كيفياً، بل هو فرق كمي أيضاً. وعلى هذا الضوء بالذات، كان القدماء والشعوب الشرقية ينظرون إلى النساء؛ فقد وضعوهن في موضعهن الصحيح، وعرفوا جيداً لأي شيء هن يصلحن بالضبط، أفضل ممّا نفعل نحن اليوم، كما تملي ذلك أصول اللياقة والشرف والشهامة ذات الطراز الفرنسي العتيق، بإجلالنا وتوقيرنا السخيف للنساء، الذي ليس سوى ذروة الحماقة الجرمانية ـ المسيحية. ومثل هذه الأفكار لم تؤد إلا إلى جعل النساء متعجرفات ومتغطرسات وممعنات في الوقاحة. وأحياناً يدفعني هذا إلى أن أستحضر في ذهني سعادين بيناريس (Benares) المقدسة، الذين لما أدركوا قدرهم الرفيع المقدس وحرمتهم، حسبوا أنّ كلّ شيء مباح.

في الغرب، المرأة ولا سيما تلك التي تدعى «السيدة الأوروبية» (Dame) تحتل مقاماً لا تستحقه (fausse position)؛ لأنّ المرأة، أو ما سمي بسداد الجنس الأدنى عند القدامى، ليست جديرة بأي وجه حق بأي احترام وإجلال، ولا ينبغي أن تتلقى أي ثناء، ولا أن ترفع رأسها أعلى من الرجل، ولا هي خلقت لكي تحظى بحقوق مساوية لحقوقه. وعواقب هذه المكانة الخاطئة واضحة للعيان بالقدر الكافي. كان خليقاً بأوروبا أن تنزل هذا الرقم الثاني في

تراتبية الجنس البشري إلى مكانه الطبيعي، وأن نزيل كلمة السيدة الأوروبية عديمة المعنى من قواميسنا، التي تتخذها كل القارة الآسيوية موضوع سخرية وتندر، ناهيك عن روما واليونان اللتين لم تشذا عن آسيا. ومن حيث النتائج، فلا بد أن يسفر هذا الإصلاح من وجهة النظر السياسية والاجتماعية والمدنية عن منفعة عظمى. ومن نافل القول إنّ هذا القانون من الشريعة السالية[1] حقيقة بديهية (truism)[2] تغشى الأبصار، ولا ضرورة له على الإطلاق. إنّ ما نطلق عليه، بدقيق العبارة، السيدة الأوروبية، لهو نمط من الكينونة، لا ينبغي أن يكون له وجود البتة. وعلى الضد من ذلك، فلا ينبغي أن يوجد في العالم سوى النساء المنزليات، الغارقات لآذانهن في تدبير شؤون البيت، وفتيات يافعات غاية أملهن أن يصرن ربات بيوت، وألا ننشئهن أبداً على الكبرياء والعجرفة المتغطرسة والخيلاء، وإنّما على الكدح الدائم الدائب في المنزل وعلى السمع والطاعة العمياء والخنوع. فوجود سيدات في أوروبا، ألقى بنساء الطبقات السفلى، ومن ثم الأغلبية الساحقة من هذا الجنس، إلى أتون الشقاء والتعاسة أكثر من شقائقهن في الشرق.

---

(1) قانون الخلافة الذي يستثني من العرش المنحدرين من حاكم سابق عبر وساطة المرأة. (هامش الترجمة الإنجليزية).
(2) ترد بالإنجليزية.

فحتى اللورد بايرون قال يوماً[1]: «خمنوا وضعية النساء تحت حكم الإغريق الأوائل ـ كانت مريحة كفاية. أما وضعهن الحالي، من مخلفات بربرية عصور الفروسية والإقطاع الوسطى ـ حالة مصطنعة وغير طبيعية. فقد كان عليهن أن يَعنين بشؤون البيت الداخلية ـ وأن يحظين بلذيذ الأكل وأفخر الملابس ـ لكن دونما مخالطة باقي أفراد المجتمع. وأن يَكنّ أيضاً على قدر كبير من التربية والمعرفة بشؤون الدين، ولكن شريطة أن يتجاهلن الشعر والسياسة، وألا يقرأن شيئاً آخر عدا كتب الورع الديني والطبخ، والموسيقى، والرسم، والرقص وأقل القليل من أعمال البستنة وفلاحة الأرض وزراعتها بين الفينة والفينة. لقد عرض لي أن رأيت بعضهن يعبّدن الطرق في إيبيروس (Epirus) بمهارة فائقة. فلم لا يضبفن إلى جانب ذلك صناعة التبن والدريس والحلابة؟»

* * *

في رقعتنا الأوروبية من العالم، حيث الزواج بواحدة هو القاعدة، فأن تتزوج يعني من جهة، أن تشطر إلى نصفين حقوقنا وأن تتضاعف واجباتنا من جهة أخرى. على كلّ، فبما أنّ القوانين قد خوّلت النساء حقوقاً مساوية لحقوق الرجال، فقد كان حرياً

(1) الرسائل والمذكرات، توماس مور، المجلد الثاني، ص. 454

بتلك القوانين أن تمنحهن نفس ملكة العقل التي للرجل[1]. ومن ناحية أخرى، كلما أغدقت القوانين على المرأة حقوقاً وتشريفات تفوق وضعها الطبيعي، قللت عدد النساء اللائي يمكنهن أن يستأثرن حقّاً بهذه الحظوة، ويسلبن من الأخريات حقوقهن الطبيعية، بالقدر ذاته الذي يهبن فيه حقوقاً استثنائية لبعض المحظوظات ذوات الامتياز.

إنّ امتياز الزواج الأحادي والقوانين التي تترتب عليه يخولان المرأة مكانة تفضيلية غير طبيعية، وذلك بإعلانها المكافئ العِدل للرجل، من غير أن يتأسس ذلك على أي أساس مكين، يؤدي إلى نتيجة أنّ الرجال العاقلين والحذرين يترددون ألف مرة قبل الإقدام على مثل هذه التضحية العظيمة، ويربؤون بأنفسهم عن مثل هذا الميثاق الغليظ الجائر[2]. ففي الشعوب التي تقبل تعدد

(1) وإذا أولنا العبارة، يمكن ترجمتها على هذا النحو: كان حرياً بها وأولى أن تمنحهن عقلا فحلاً أو عقلاً بقوة ذكورية. (المترجم).

(2) عظيم هو عدد الذين لا يستطيعون الباءة أو هم في وضع لا يخول لهم الزواج. فكل رجل من هؤلاء الرجال إلا ويخلف عانساً بلا موارد لتعتاش منها، وغير سعيدة في كل الأحوال، لأنها كانت تفتقر إلى الموهبة التي تميز جنسها. ومن ناحية أخرى، فالكثير من الرجال لديهم زوجة، التي بعد الزواج سرعان ما تصاب بمرض عضال مزمن يستمر زهاء الثلاثين سنة، فما الذي ينبغي عمله حينئذ؟ وبالنسبة إلى رجل آخر صير الدهر امرأته عجوزاً شيباء، تغدو هذه المرأة في عين ثلث الرجال كريهة وبغيضة. كل هذا في أوروبا وتحريم الزوجة الثانية لا يزال ساري المفعول، على عكس ما هو الأمر في كل من آسيا وأفريقيا. لكن

الزوجات، كلّ امرأة تبحث عمّن يقوم بأودها ويسد حاجاتها، وعلى النقيض من ذلك في مجتمعات الزواج الأوحد يكون عدد النساء المتزوجات محدوداً، في مقابل عدد لا يحصى من المنكودات؛ يبقين من دون إعالة ولا رافدة. ففي الطبقات الأعلى من المجتمع، تفني النساء أعمارهن هدراً كعوانس عديمات النفع يسبحن في لجج الغبن، ويسدرن في غيابات الحزن. أما في الطبقات الأدنى من المجتمع، فيعشن إما كمخلوقات ذليلة مسخرة للأشغال الشاقة والمرهقة، أو يُمسين مومسات بائسات يجرين خلف حياة مخزية، ويمرغن سمعتهن في الوحل. وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية فهن يَغدين ضروريات لإشفاء غليل نزوات الذكر الجنسية. ولهذا يبدين كما لو أنّهن يشكلن طبقة أو مهنة معترف بها في العلن، هدفها الخاص أن تدفع عن النسوة السعيدات، اللائي حالفهن الحظ فوجدن أزواجاً أو يأملن في الزواج، من شر المراودة والغواية والاستمالة والاستدراج [الذكوري]. ففي مدينة لندن وحدها، يبلغ تعداد المومسات ثمانين ألف امرأة؛ من ضحايا الزواج الأحادي، اللائي قدمن كأكباش فداء سيقت لتجز أعناقهن، بلا هوادة، على مذبح الزواج.

ماذا إن آنس رجل فحل قوي البنية، وعلى الرغم من وجود الزواج الأحادي، في نفسه الدافع الجنسي...؟ إن مثل هذه الأشياء بسيطة وسخيفة ومعروفة من قبل الجميع (.Haec nimis vulgaria et omnibus nota sunt).

إنّ هؤلاء النسوة الشقيات من عاثرات الحظ هن التعويض والبديل الذي لا بدّ منه للسيدة الأوروبية، تلك المتعجرفة التائهة المختالة. أمر واضح، إذن، أنّ في تعدد الزوجات لمنفعة كبرى للجنس الأنثوي برمته. ومن ناحية أخرى، فإنّنا لا نرى أي مانع معقول أو سبب وجيه يحول بين الرجل والزواج من امرأة ثانية، خاصة حين يفدح امرأته الأولى مرض مزمن، أو حين تكون عاقراً عقيماً لا تنجب أطفالاً، أو حين يأتي عليها الدهر فتبدو عجوزاً شيباء في نظر زوجها. ولعل ما كان وراء اعتناق كثيرين للمورمونية هو أنّها، على وجه الدقة، ألغت هذا الزواج الأحادي الذي يناقض الطبيعة. وزد إلى ذلك أنّ منح امرأة حقوقاً فوق طبيعتها، فرض عليها واجبات فوق طبيعتها، وفي عصيانها سبب تعاستها وعلة أحزانها. ومن ثمة فاعتبارات المنزلة الاجتماعية للطبقة والثروة، تلقي بكلّ ثقلها على الرجل الذي يتزوج، فتجعله يظن أنّه ارتكب رعونة إن لم يتزوج زواجاً ناجحاً؛ فإذا أراد أن يحظى بامرأة من اختياره وتنال إعجابه، في ظل شروط أخرى مختلفة، لا سيما تلك التي ستؤمن له مستقبله ومستقبل أبنائه، فعليه أن يبحث عنها خارج الزواج، وأن يكتفي بتأمين مصير زوجته وأبنائه منها. فلو أمكنه أن يفعل ذلك بكيفية عادلة ومنصفة ومعقولة وملائمة، وكان على المرأة أن تسلم قيادها من دون أن تتشدد في الحقوق المبالغ فيها، التي يخولها الزواج، فستخسر إذن الشرف لأن

الزواج هو أساس المجتمع المدني، وستتهيأ لتحيا حياة تعيسة لأنّ من طبيعة الكائن الإنساني أن ينشغل بأكثر ممّا نتصور بآراء الآخرين. أما في حال العكس، أي إن أبت المرأة ولم تذعن، فإنّها إما أن تركب مجازفة ربط نفسها برابطة الزواج برجل تمقته، أو أن تترك شبابها يضوي وتلبث عانساً خائبة طوال حياتها؛ لأن أمامها سنوات قلائل فقط لتقرر في عرض رجل مستعد ليعيلها. من وجهة النظر هذه الخاصة بالزواج الأحادي، فإنّه يحسن بنا قراءة المقالة العلمية الرصينة والعميقة لتوماسيوس Thomasius التي عنونها بـ«عن الاستسرار 1713) «De concubinatu)[1].

إنّنا نرى بأم العين أنّ كلّ الشعوب المتحضرة، وكلّ الأمم وفي كلّ الأزمنة والعصور، إلى حدود الإصلاح الديني اللوثري كان الارتباط الحر آنذاك مسألة مقبولة، ومعترفاً بها قانونياً إلى حد ما، ولم يكن بأي حال من الأحوال، عملاً معيباً ولا ممارسة شائنة. وقد كان هذا أمراً واقعاً حتى الإصلاح اللوثري، الذي كان السبب الرئيس وراء إسقاطها، حيث رأى في نسخها (أي إلغائها) وسيلة أخرى لتبرير زواج الرهبان، ما عجل بدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى الإذعان والامتثال، وإلا تخلفت عن الركب.

---

(1) عنوان المقالة كاملا: « Dissertatio inauguralis iuridica de concubinatu (1713) » (المترجم).

وفي النهاية فلن نظفر بأي طائل من المماحكة والجدال بخصوص الزواج المتعدد، لأنّه بات حقيقة تغشي الأبصار وأمراً واقعاً يوجد في كلّ مكان، وليس المشكل بمتعلق سوى بكيفية تنظيمه. أين نجد أحاديي الزواج الأحقاق والفعليين؟ كلنا نعيش، على الأقل خلال فترة يسيرة من الزمن، وفي أغلب الأحيان، أو دائماً تقريباً، نعيش في فلك الزواج المتعدد. وعلى ذلك، إن كان كلّ رجل في حاجة إلى نساء عديدات، فمن العدل أن يكون حراً طليقاً، بل حق عليه أن يلتزم بتحمل مسؤولية رعاية نساء كثيرات؛ وبهذه الكيفية، ستنحدر المرأة بدورها إلى موقعها، ومقامها الحقيقي والطبيعي، أي ككائن خاضع وتابع، وسيكتب لنا أن نرى كلمة السيدة الأوروبية، وحش الحضارة الأوروبية والحماقة الجرمانية ـ المسيحية، بادّعاءاتها التافهة استحقاقها الاحترام والتوقير والتبجيل، وهي تتوارى وتختفي من العالم، بحيث تبقى النساء فحسب، ومن دون أن يبقى أي أثر لامرأة من أولئك النسوة البائسات اللاتي تفيض بهن أوروبا حالياً. لقد كان المورمون على حق، ولم يجانبوا الصواب قيد إصبع.

* * *

في بلاد الهند والسند، لا امرأة مستقلة وحرة بنفسها، لكن كلّ امرأة هي دائماً تحت وصاية وقوامة أبيها أو زوجها، أو

أخيها أو ابنها، طبقاً لتشريعات مانو Manu[1]، الفصل الخامس، القانون 148.

وإنّه من المؤكد، لأمر فظيع تقشعر له الأبدان الوقوف على مشهد الأيامى المفجوعات بموت أزواجهن اللائي يتحتم عليهن، ناهيك بذلك، أن يُدفَنّ حيّات فوق جثامين أزواجهن الهالكين، فمثلما أنّ الأمر الأول مريع ومقزز فإنّ عليهن، أي تلك النساء الأيامى أن يتذكرن كذلك أنّ تبذيرهن ثروة الزوج التي اكتسبها بعرق جبينه وطوى عمراً في جمعها، ممنياً النفس أنّ كده وشقاءه، هو في سبيل ذريته من بعده، على أخلائهن هو أيضاً أمر بنفس روع وفظاعة الأول، فالسعيد وأبو الجد من لا يبتعد عن الوسط (Mediam tenuere beati)[2].

إنّ الحب الأمومي الفطري، سواء عند الحيوان أو الإنسان، حب غريزي خالص، ومن ثمّ فهو يتبخّر بمجرد ما يشتدّ عود الطفل ويشبّ عن الطوق. وبعدئذ، يفترض أن يحلّ محل الحب

---

(1) تشريعات مانو: قصيدة طويلة كتبت بالسنسكريتية في القرن الأول قبل الميلاد، وهي تعرض معرفة موسوعية تبدأ بخلق العالم وتنتهي بأعراف الزواج. وقد جاء حرفياً في الفصل الذي عناه شوبنهاور ما يلي: «على الأنثى وهي طفلة أن تكون خاضعة لأبيها، وتابعة لزوجها وهي يافعة، وحين يموت سيدها تكون طوع ابنها؛ على المرأة ألا تكون أبداً حرة ومستقلة». (المترجم).

(2) ويمكن ترجمتها: خير الأمور أوسطها.

الأول حب ثانٍ أساسه العادة والتعقل، لكن هذا ما لا يحدث عادةً، لا سيما إن كانت الأم لا تحب الأب[1]. إنّ حب الأب لأبنائه من طبيعة مختلفة وأكثر صدقاً ورسوخاً؛ لأنّه حب قوامه اعتراف بصميم ذاته الداخلية في الطفل، وبالتالي فهو حب ميتافيزيقي من حيث أصله.

في كلّ أمة وعرق على هذه الأرض تقريباً، سواء في العالم القديم أو الحديث، وحتى بين الهوتنتوت Hottentots[2]، كان خلف الرجل وحده، هو من يرث تركته وممتلكاته، بينما لا ترث الأنثى شيئاً من الميراث. وكانت أوروبا الاستثناء الوحيد، لكن مع استبعاد الطبقة الأرستقراطية من هذا الاستثناء. فأن تنتقل ملكية الرجل الذي تحدى الصعاب وجاهد طويلاً بالعمل الشاق، وثرواته إلى أيدي النساء بعده، واللاتي بحماقتهن الهوجاء، إما أن تبذرنها في وقت وجيز أو أن تبددنها هدراً. إنّ هذا لحيف من

(1) وهذه عين حالة شوبنهاور نفسه حيث كانت أمه يوهنا تكره أباه هاينريش؛ ربما بسبب عدم توافق طبعيهما أو فارق السن بينهما أو كان ذلك لكونها كانت تعشق شابا قبله فتزوجت هاينريش زواج منفعة رتبه لها والداها. (المترجم).

(2) لدى الهوتنتوت، كل ثروات الأب وخيراته يرثها الابن البكر من أبنائه، أو تنتقل في نفس العائلة إلى الذكر الأقرب. هذه التركة لا توزع أبداً، والنساء لا ينلن أي شيء من الميراث. (ش.ج. لوروا، رسائل فلسفية حول ذكاء الحيوانات وقابليتها للوصول إلى الكمال، مشفوعا برسائل حول الإنسان، طبعة جديدة، باريس، 1802، ص. 298.)

الفداحة والذيوع، وعلينا أن نتصدى له، وذلك بتحديد وتقييد حق المرأة في الإرث. يبدو لي أنّه لمن حسن التدبير لو أنّ النساء، سواء كنّ أيامى وأرامل أو بنات، أن يرثن مدى الحياة معاشاً سنوياً تضمنه الرهون العقارية، وألا ينلن أية ملكية عينية أو رأس مال، إلا إذا لم يخلف أي ولد على الإطلاق؛ لأن الذين بذلوا حياتهم كداً وتعباً ليجنوا الثروة هم الرجال، وليس النساء، ومن ثمّ، ليس من حق هؤلاء ولا مخولاً لهن، ولا مستأهلات، لا الملكية المطلقة غير المشروطة لتلك الثروة، ولا الكفاءة والاقتدار على تدبيرها وحسن التصرف فيها. فعلى الأقل ينبغي ألا تتمتّع النساء مطلقاً بحرية التصرف في الثروة، التي قد يرثنها من مثل رأس المال والمنازل والأراضي والعقارات. إنّهن في حاجة دائمة إلى وصي قيّم؛ ولهذا ليس علينا أن نجعلهن متعهدات أو وصيات على الأطفال تحت أي ظرف كان. إنّ عنجهية النساء وخيلاءهن، وإن كانت لا تضارع غرور الرجال، يشوبهما عيب التعلق كلياً بالأشياء المادية ـ وأقصد بذلك، أنّه يكون متمركزاً على جمالهن الذاتي، إضافة إلى أمور الزينة والتبرج والبهرج والأبهة والفخفخة والتباهي الفارغ. ولهذا السبب فهن في موقعهن الصحيح في المجتمع. وهذا ما يجعلهن ميالات إلى أن يكن باذخات ممعنات في الإسراف والتبذير، بسبب انحطاط قوى عقلهن ومحدودية ذكائهن... وإلى ذلك، يقول كاتب من زمن دال وولى: «المرأة بطبيعتها مبذرة ومنفاق» (.S

(Brunck, Gnomic Greek Poets, v. 115)[1]. أما إعجاب الرجال وزهوهم بأنفسهم، في المقابل، فهو يكون على الأغلب موجهاً نحو الفضائل والخصال غير المادية، مثل الفهم والفكر والعلم والشجاعة... وما شابه ذلك. يوضح أرسطو في السياسة (الكتاب الثاني، الفصل التاسع) المثلبة العظمى التي كان على الأسبرطيين تكبدها بتعويلهم، وتفويض أمورهم إلى نسائهن، وبإعطائهم إياهن الحق في الإرث، ودفع المهور وتشريع باب الحرية والاستقلالية على مصراعيه لهن، وكيف آذن كلّ ذلك بسقوط إسبرطة. ألم يكن النفوذ المتزايد للنساء في فرنسا منذ حكم لويس الثالث عشر مسؤولاً عن الفساد الزاحف كالدبى للبلاط والحكومة؟ ما شبب بدوره ضرام الثورة الأولى، التي كانت نتيجتها المباشرة كلّ ما أعقبها من القلاقل والفتن اللاحقة. وعلى كلّ حال، فإنّ الموقع الخاطئ والزائف للجنس الأنثوي، الواضح وضوحاً يفقأ العين لا سيما بوجود عرضه الحاد أو لنقل بوجود مثاله الأظهر؛ أي مشكلة «السيدة الأوروبية» (Damenwesen)، لهو وصمة عار وعوار فادح في شرطنا الاجتماعي. وانطلاقاً من هذا الأساس سيعمل على توسيع تأثيره الوخيم، كسرطان خبيث ينتشر في كلّ أطراف نسيج المجتمع.

---

(1) جاءت عبارة الشاعر اليوناني غنوميسي على هذا النحو بلغتها الأصلية: «Γυναί το συνόλων εστί δαπανάερον φύσει» (المترجم).

إنّنا بقولنا إنّ المرأة مهيأة بالفطرة لتخضع، وتسلم القياد وتنصاع طائعة، فدليلنا الدامغ على ذلك أنّ كلّ امرأة وجدت نفسها في وضعية استقلال تام، وهو ما يتنافى مع طبيعتها بداهة، تهرع على الفور حاثة الخطى إلى الالتصاق بأي رجل محتمل، فتسلمه قياد أمرها ليسوسها ويحكمها، لأنّها ببساطة شديدة في حاجة أبدية إلى سيد. أما إن كانت ما تزال يافعة في ميعة الصبا وربيع الشباب فسيكون سيدها هو نفسه عشيقها، وإن كانت في خريف العمر فسيكون ربها هو قس الاعتراف.





يحمل الفيلسوف الألماني عن البشر بعضاً من عذاباتهم في **هذا** الكتاب، إذ يخبرهم أنّهم خاضعون، حتى في شأنٍ **بالغ** الخصوصية مثل **الحبّ**، إلى إرادة النوع التي **تُعنى بأن** يتناسل الأفراد، **ويتخلّد** النوع.

يخبر شوبنهاور الأفراد **أنّهم مخدوعون بوهم الحبّ**، شقاؤهم ومعاناتهم **مع العاطفة، ما هو إلا تلاعبٌ من** إرادة تفوقهم، و**مساعيهم وراء الحبّ**، ما هي إلا حيلُ النوع، على حساب مصائرهم، **إنّها** ببساطة عبقرية الجنس في أن يتخفّى وراء ستار الحبّ.

لوحة الغلاف ل كارولين باردوا بعنوان: جوانا شوبنهاور مع ابنتها أديل، 1806
كارولين باردوا رسامة ألمانية (1781-1864) / جوانا شوبنهاور هي والدة آرثر وأديل شوبنهاور



ISBN 978-9-9226433-1-1
9 789922 643311

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين